والآن استودعكم الله جميعاً فهل تقبلون قبلات الوداع .

وفى فجر اليوم التالى أسلمت الروح ولقد كان حزننا عليها شديداً ودفناها حسب اشارتها فى البلدة

* * *

كلفني شقيقى ان أتم المذكرات باضافة قصة مرضه اليها . وما كنت راغبة في عمل هكذا ولكنى لم أجد مندوحة من اتمامه لشدة الحاحه على .

وقع موت صديقتى على زوجها كالصاعقة وسرعان ما انتابه المرض فكان يعاوده احياناً ويذهب عنه حيناً . ولقد اصيب (بالانفلونزا) الاسبوع الاخير فلم يمهله داؤه الجديد إلا ثلاثة أيام واختطفه من بين أيدينا .

وقبل أن يسلم الروح قال لى :

ادن منى ياشقيقتى : لقد قاربت الموت ووصيتى أن ترعى أطفالى وطفلك وتنفذى وصية والدك وارادة زوجتى . اتعاهدينى على ذلك .

فقلت له وأنا اجهش فى البكاء .

أعاهدك ان افعل مافى وسعى لسعادة الاطفال .

* * *

وبعد الغروب بقليل اسلم الروح وهو بين يدى فدفنته حسب ارادته جوار زوجته ولكنى رأيت الا أستمر مقيمة بالبلدة بل فضلت التروح الى حلوان فحدثت زوجى بذلك فوافقنى على رأيى واخترنا حلوان لنا سكنا .

* * *

لقد خلف لى العزيزان الحسرة وكانت قصتهما عبرة وعظة

﴿ تمت ﴾

بقية المذكرات

كلفتنى زوجتى أن أتم مذكراتها التى كتبتها عن حياتها : حياة الزوجية الاولى وحياة الزوجية الثانية وما تخللها من حياة العهر والفجر وإطاعة لامرها أتم مذكراتها .

لشد ما تعذبت المسكينة فى مرضها الاخير ، ولشد ما قاست منه ، فلقد أضعف جسمها وأنحله بعد أن أنهك قواها ولكنها احتملت ذلك بصبر جميل لازمت فراشها ثلاثة أشهر تألمت أثنائها أشد الألم وزاد الاطباء ألمها بمخدراتهم وأحقانهم

قضت أيامها العشرة الاخيرة ملازمة فراشها لا تحرك الا نادرا ولا تتكلم الا قليلا بل كانت تتمتم أحيانا باسمى وأخرى باسم والديها

وفى يومها الاخير عاودها بعض قواها فقالت لى وهى تتألم :

انت هنا ، مسكين ياطفلى سأخلفك وحيدا فى الحياة وسأرحل للعالم الآخر الليلة فهل تدعو ولدى ومن تبنيتهما وصديقتى لا تزود منهم بنظرة الوداع

أسرعت فدعوت الاطفال وشقيقتى ولما اكتمل عقدنا قالت .

يشق علىّ ان افارقكم ولكنى مسرورة لانى سألتقى بكم بعد فى جنة الفردوس : أما أنت يا ابنتي فاعتبرى بحياتى واتعظي بشقائى ولتكن مذكراتى التى عنيت بكتابتها لك خير درس ووالدك — وأشارت الىّ — سيبذل جهده فى تثقيفك . أما انت يا والدى فوالدك سيقص عليك قصته التى أعتقدانها خير درس تتعلمه . وانت ياطفلى استحلفك بحبى أن تبذل جهدك فى تثقيف ولدينا والاعتناء بهما وكذلك بمن تبنيتهما والصديقة ستساعدك فى هذه المهمة

٢٧

المرض

شاءت حياة العهر ان تذكرني دائماً بشرها فأورثتني مرض الصدر الذي أعيي معالجته امهر الاطباء فكان كالشبح المخيف يذكرني بماضي الاسود

عاودني المرض هذه الدفعة بشدة فاستشرت اطبائي كما اعتدت استشارتهم كل سنه ولكن أملهم بشفائي كان ضعيفاً جدا . فشعرت ان نجمي قد آذن بالافول

لم اكن لأخاف الموت أو ارتعد منه ، بل كنت اخشي ان أترك طفليّ ولا نصير لهما في الحياة

*
* *

لم يمض على استشارة اطبائي نصف عام حتى عاودني المرض بشدة قاسية حتى انه لم يمكنني ان أتمم قصتي فدفعت بدفتر المذكرات لزوجي ورجوته أن يتم قصتي لاني اشعر ان أجلي قد حان

حاول طفلي ان يقنعني ان حديث الاطباء لايؤبه به ولكني لم اقتنع بحديثه

— اوافق اذا كان ذلك فى مقدورى

— سأ كون ام الطفل اترضى بى أماله ؟

— هذا منتهى ما تصبوا اليه نفسى وكم وددت ان احدثك بذلك ولكنى كنت اخاف ان تقابل طابى بالرفض ، مدفوعة اليه بعامل الغيرة

— سامحك الله دعنا من هذا الحديث فقد اتفقنا الآن اتصفح عنى

— من منا أحق بطلب الصفح انا — طبعا — لانى اخفيت عنك سرى وأبيت أن أبوح به لك ؟

— بل أنا

— وكيف ذلك ؟

— لاني تجرأت فاطلعت على سرك قبل ان تبوح لى به ، ولذا فانى اشاركك حزنك على حبيبتك واعاهدك ان اكون ام ولدك

— يالك من فتاة كريمة طيبة القلب ، اصفح عنك بكل سرور وأزيد إنى شاكر لك ممتن لجميلك الذى لن أنساه ما حييت

— لاشكر على الواجب

***

وهكذا وضعت حدا لشكوكي وانقطعت وساوسى واكتسبت ثقة طفلى وعطفه على

ولم يمض على اكتشاف سر طفلى نصف شهر حتى مرض والدنا وانذرنا الاطباء ان مرضه سيقضى عليه ولقد كان هو الآخر يشعر بذلك فطلبني واخبرنى انه رأى أن يتم عقد زواجي فى صباح الغد قبل ان يقابل ربه الكريم

وفى صباح الغد عقد زواجى على طفلي وبعد ثلاثة أيام من عقد الزواج توفى والدنا البار فكان الحزن عليه عاما سواء فى الاسرة او فى القرية لانه كان بارا بالفقراء محسناً للمساكين مكرماً للضعيف مساعدا للمحتاجين

وقد أراد الله جلت ارادته ان يكافأنى صبرى الطويل وشقائي الكبير بغلام كان عزائى فى أيامي الاخيرة

ـ كلا وانما زوجها هو الذى ابتدأ بهجرها فسهل لها ذلك السبيل والحب خطفتها تملك حواسنا وأقصد بالحب ، الحب الجنوني

ـ ولم خانته ؟

ـ لانها اكرهت على زواجه

— الا تزال حية ترزق ؟

— لقد انتقلت لجوار الله ربها الكريم

— مسكينة هى غفر الله ذنبها وعفا عن خطيئتها الكبيرة

— اتعتقدين انها خانته ؟

— وهل يخامرك شك فى ذلك ؟

— نعم أعتقد خلاف ذلك ، اذ ارى ان عليه وحده تقع المسئولية

— اخانها زوجها فصادق خليلات أم زوجات رجال آخرين

— خانها مرات عديدة بان صادق زوجات فاصبحن له خليلات

— أرى ان المرأة يجب عليها الا تخون زوجها ولو خانها هو لانها هى المحافظة على النسل وعليها تقع المسئولية دائما لا عليه أما هو فدائما برىء

— هذا رأيك ولكنى أرى خلاف ما تعتقدين

— أأثمرت خيانتك الدنيئة ؟

— نعم قدر الله لها ان تثمر

— اغلام امطفلة ؟

— غلام يشبهها تماما لا يزال على قيد الحياة

— وهل تزوره وتراه أم هجرته ؟

— انني آت من عنده الآن لأنه مريض طريح الفراش واخشى أن يودى المرض بحياته

— اذلك سبب ألملك الذى تخفيه ؟

— نعم ذلك هو السبب ؟

— اطلب منك طلبا أتوافق عليه ؟

ـ حتى لمن ستكون زوجتك

ـ لم استثن أحد وقت ان عاهدتها ذلك العهد

ـ ألا تظن ان الزواج المحفوف بالاسرار يسبب كثيرا من المتاعب وينتهى غالباً بالشقاء والالم

ـ أتظنين هذا الظن

ـ ولم لا أظن وقد بحت لك باسرارى كلها

ـ لكني لا أستطيع الحنث بقسمى

ـ اكفيك مؤونة الحنث انما لى حديث معك

ـ تفضلى فكلى آذان صاغية

ـ وانما على شرط ....

ـ موافق على شروطك مقدماً دون ان اعرف شيئاً عنها

ـ عدنى ان تكون صريحاً

ـ أعدك أن أكون كذلك

ـ أنت تحبنى الآن ولكن ألم تحب غيرى ؟

ـ نعم كنت أحب التى حدثتك عنها فى خطاب اعترافى

ـ ألم تحب غيرها ؟

ـ لم أحب غيركما أجد فى الوجود

ـ وصاحباتك وخليلاتك اللاتي حدثتنى عنهن ؟

ـ لم يكن لهن أثر في نفسى

ـ ألا تزال تحبها من صميم قلبك

ـ ما زلت احفظ ذكرها وجميل عهدها وايامها اللذيذة الجميلة

ـ وهل كانت فتاة أم زوجة ؟

ـ كانت زوجة

ـ اذن خدعتها واغريتها فخانت زوجها فأصبحت ساقطة

ما انتهيت من اكتشاف ذلك السر الذى شاء طفلى ان يدفنه فى صدره، حتى جمعت الخطابات كما كانت ووضعتها فى محلها الخاص بها بعد أن القيت نظرة على البائسة المسكينة، نظرة ضمنتها كل عواطفى نحو من استشهدت لا لاجل الحب فحسب بل من جراء التقاليد الاجتماعية التي طالما وقفت حجر عثرة فى سبيل تحقيق أمانى فريق كبير من الناس

***

قررت ان ألازم غرفتى وانتظر حضور طفلى الذى تكهنت ان غيابه متعلق بطفله الذى يربيه عند مربية والذى آليت على نفسى ان آخذ على عاتقى مهمة تربيته وعزمت ان أخصه بعطفى كأنه ابنى . عساى بذلك أكفر عن ذنوب حياتى الاولى

حضر طفلى عند انتصاف الليل فاسرعت لاستقباله فاذا به يلهث تعباً واذا أمارات حزن خفيف تبدو على محياه الاصفر الممتقع

لو جهلت سر طفلى ما استطعت ان ألاحظ حزنه القلبى ولما دخل على الغرفة ووجدنى انتظره بدأنى التحية والابتسامة تملىء فيه فقال

ـ آه شكرا يا حبيبتى ألا تزالى تنتظرينني ؟

ـ أكنت تتوقع منى غير ذلك

ـ لا لكنك تجهدين نفسك اكثر من اللازم

ـ وهل تعبى يوارى متاعب نفسك ، إني ألاحظ فى أسارير وجهك انك تكتم عني سرا وهذا السر يتعبك ويسبب لك نصبا

أتعتقدين ماتذهبين اليه ؟

ـ أنا موقنة لانك اخبرتنى انك ستكتم عني سر حبك الماضى

ـ هذا صحيح لانى سأحفظه فى سويداء قلبي وهذا السر لا يهمك معرفته

ـ وكيف لا يهمني ذلك وهو شغلى الشاغل

ـ هذا عهد قطعته أمام من أحبتنى ألا أبوح بسرها لمخلوق

انى أخشى ان طلبت منه بألحاح ان اسبب غضبه وان سببت غضبه قد لا تحسن العاقبة .

***

اجل أعلم ان طفلى يحبنى فاذن لا معني ان يكشف لى سرا ويقول لى انه احب أخرى ولكى اضع حدا لذلك الشك الذى يساورنى والريب الذى يخالج نفسي وامنع ما لا تحمد عقباه يجب علىّ ان اطلع على هذا السر .

***

ان الدافع الأدبى ضعف أمام الدافع النفسانى . ولذلك أخذت افتش فى ادراج المكتب ولكنى لم أعثر على شيء فيها ولما فتحت الخزانة . عثرت على صندوق جميل . مكتوب عليه ما يلى :

« أرجو من يعثر على هذا الصندوق الا يفتحه »

علمت تواً ان بهذا الصندوق سر طفلى

فتحته فتضوع من داخله رائحة (زهرة الحب) ووجدت كراسة صغيرة وتسع خطابات ثم خصلة من شعر داخل منديل حريرى ثمين ثم اطاراً جميلا داخله صورة امرأة .

نظرت للصورة الشمسية فاذا فتاة جميلة لا تتجاوز من العمر خمس عشر ربيعاً ، متناسبة الاعضاء ، جذابة الملامح ، تنم ملامحها على انها وديعة نبيلة

كان همي الوحيد بعد ذلك قراءة الكراسة وتلاوة الكتب التسعة

امسكت الكراسة بين يدى فاذا فى مقدمتها ما يلى :

مذكراتى عن حبيبتى

أخذت فى تلاوة الكراسة ، فاذا مقتضب قصير لما حدث بين طفلى وبين من تحبه ثم تدرج عقب ذلك لذكرى حبه وشرح عواطفه نحوى ، ولما طالعت الكتب أنارت لى بعضهم ما أبهم فى ورقات المذكرات

احدثه عن كل شيء قبل ان يسألني وبعد مضى شهرين عدل عن اسئلته ، اما انا فلم اعدل عنها اما هو فكان يجاوب اسئلتى مبتسما

لاحظت ان طفلى يكتم عن سرا وحاولت مرارا ان اكتشف هذا السر فاخفقت وأظن انه يسوءه ان اطلع على سره . ولكني عبثا حاولت ان افهمه ان ذلك يسرنى أكثر مما يسيئني ، فان ساءنى فيكون ذلك لوقت قصير

* * *

كنت انتظر زوجى فى الحديقة ولكنه غاب الليلة أكثر من عادته

انى اسمع على البعد وقع أقدام فهل هو القادم ؟ لا ! انه وقع اقدام قد ابتعدت واظنه جارنا المزارع يرجع لداره بعد ان أمضى سحابة نهاره فى العمل ٠

لم أستطع ان اتكهن سبب غيابه ولكنى غالطت نفسى وعزوته لكثرة اعماله

غادرت الحديقة لما دقت الساعة العاشرة ويممت غرفة زوجي ووقفت قبالة مكتبه وأنا أقول فى نفسى !

«ان فى زوايا ذلك المكتب لا بد ان أجد سر غيابه

سرعان ما رجعت الى وساوسى الماضية وسرعان ما وجدت فى نفسى دافعا يدفعنى لاكتشاف سر غيابه ٠ ولكن كيف السبيل لذلك والمفاتيح لا تفارقه ٠ ومن العار خلع الادراج لاكتشاف السر ، ولكنى سأبحث عنها لانه قد يكون قد حان وقت الاطلاع عليه

وافرحتاه ! ها هى المفاتيح لقد عثرت عليها تحت وسادة السرير ٠

ولكنى تراجعت عن فتح المكتب وقلت لنفسى :

أيليق ان اكتشف سره فى غيابه ؟ لم لا أطلب منه بالحاح ان يطلعنى على سرة ؟

***

بسيط مادمتم تعطونى حاجتى من المال . وهنا يتسابقون وانا أتدلل وعندما اعلم ان الصفقة رابحة أحقق امنية من يزيد فى الثمن

اقتصرت على عدد قليل من الخلان وكانوا اربعة يتسابق كل منهم ليكون له الحظوة فى عينى وانظر عن كثب لأرى من ذا الذى يسرف اكثر من أخيه فى رضائى فيحتم عليّ ان اكون له خليلة ولو الى حين

كنت اسخر من الفائز لانه صرف كثيراً دون جدوى ، فهو يريد ان تمتلك قلبي ، وقلبى لا يمتلكه الا حبيبى ، اهب ذلك الحبيب قلبي ، دون مقابل احبه بكل جوارحى ، وان كا لا يحبني ولا يأبه لحبى

نعم أتعذب فى حبه ، ولكنى لا أستطيع ان احب غيره •

لم يشأ الله ان اهب قلبي لمن لا يحبنى ، بل أراد « ويجب ان ندعن لارادته » ان اهبه لمن يهب لى قلبه .

* * *

لشد ما تملكت طفلى حمى الغيرة ، ولشد ما التى على نصائح كثيرة واعتاد قبل ان يبارح الدار فى الصباح ان ينظر لى نظرة ذات معان ثم يعقبها بطبع القبلة الصباحية ، وكأن هذه القبلة مسكنة لوساوسة . فاذا عاد في المساء سألنى ماذا عملت فى الصباح ؟ وكيف قضيت يومي ؟ وهل قرأت؟ وان كنت قرأت فماذا قرأت ؟ وهل تلقيت مراسلات ؟ وان كنت تلقيت فمن من ؟ وهل كتبت لاحد ؟ وان كنت كتبت فلمن ؟

ولدت غيرته ووساوسه فى نفسى الغيرة فكنت اسأله انا الاخرى بدورى فأقول له : أذهبت لمكتبك فوراً ؟ أزارتك سيدات اليوم ؟ هل هن جميلات ؟ أأتيت من مكتبك على الفور ؟ ألم تعرج على حانة ؟ ألم يحدثك صديق فيحسن لك الشراب ولعب الميسر ؟

كنت اتضايق من هـذه الاسئلة اولا ولكنى بعد حين ألفتها فصرت

بسيرها فى المدن بين الناس واحتكاكها بالاشياء ، وقد يتجسد له هذا الخيال فيكاد يلمسه ، ولو كانت قليلة المبالاة بمن تلقى ، عديمة الاحتفاء بما حولها »

كنت أمضى سحابة يومى فى الاشغال المنزلية وأتعهد ابنتى يومي الخميس والجمعة ، وانتظر طفلى فى الحديقة اقطع الوقت فى قراءة كتاب

كنت اشعر ان قلبي مفعم بالسرور ، وفؤادى مملوء بالفرح ، ونفسى راضية مستبشرة ، فاذا رأيت قطيعاً من الغنم يغدو ويروح حسبته مغتبطاً مثلى

* * *

شعرت بنعمة الحب ، الحب الذى اعتقد انه سبب سقطتى وكان هادماً لامالى ، قاضياً على أمانى ، مقوضاً لسعادتى

لم أحب زوجي الاول بل اخلصت له اخلاصاً لاتشوبه شائبة فتوهموا اننى أحببته ، أما حبى للدكتور فكان اعجاب به فحسب ، أما شعورى نحو طفلى فغير ما كنت اشعره نحو زوجي ونحو السيد الطبيب لانى أحببته وكان هو يقابل حبى بحب اعظم ، وسنمثل الآن دور الحبيبين وسنتنزه سوياً فى الحقول تحت ظلال الاشجار الباسقة المورقه وفى الليالى المقمرة نتناجى طويلا تحت ظل شجرة ينعكس عليها ضوء البدر الساطع فيكسب موقفنا روعة وجلالا

سيمسك يدي بين يديه ويضغط عليهما بشدة فتسرى كهرباء الحب فى جسمى من قمة رأسى لاخمص قدمى فانتفض واهرع نحوه وارتمى بين يديه فيقبلنى فتكون قبلته برداً وسلاما

* * *

وهكذا طرت فى جو الخيال ولكن لم ألبث الا القليل حتى صادمتنى الحقيقة الواضحة . وحدثتنى اننى حتى الآن خليلة ومن يدرى مايخبئه لى القدر

كان عشاقى يطلبون منى ان أبادلهم الحب واعطف عليهم كأن الحب عمل ميكانيكى اعمله ، وكنت أنا الاخري أتظاهر باجابة طلبهم واقول هذا سهل

٢٥

الخليلة

فى قرية الخادمية (غربية) عشت مع طفلي في منزل والده

انتقلت من حياة العهر لحياة المخاللة ، ولكن حياتى الآن شبيهة بالحياة الزوجية ، الا انه ينقصها ذلكم الرباط المقدس ، الرباط الذى يربط القلبين الى الابد

ما كنت قبل اليوم اعرف انى سأحب طفلى حباً يتملك فؤادى ويسبب سعادتى وهنائى ، لانى كنت أظن دائماً ان الكتاب تجرى وراء الخيال ولا تصور الحقيقة ولكن الآن تحققت انهم صادقون فيما يذهبون وجميل هو قول الكسندر دوماس فى هذا الصدد :

« جرت العادة قرن الحب بالخلاء ومزارع العراء ، وأحسن بما جرت به العادة ، فانه ليس ثمة من اطار يتأطر حول الفتاة الحبيبة ، أبهج من السماء الزرقاء ، ولا أشهى من الروائح الفيحاء ، والزهور الغضة اليانعة ، والنسائم الرخية ، والمكان الموحد ، تملأه الاضواء بين الحقول أو الغابات . وعدا هذا فالمرء اذا أحب حباً صادقاً فليجدن الغيرة فى قلبه قليلة أو كثيرة مهما بلغت ثقته بحبيبته وطمأنه ماضيها على مستقبلها

وان كنت أحببت مرة فأنت لاشك تدرك معنى الحاجة الدافعة التى لا تفتأ تدفع بالمحب الى فصل حبيبته عن الدنيا بأسرها ، لتكون له وحده ، فانه ليخال انها تفقد جزءا من طيبها الفائح ، ويذهب شيئاً من وحدتها الكاملة

لحبها ويتألم لعذابها

طلبت منها الزواج فقبلت ، ولكنها اشترطت رضاء أهلي وأولياء أمري ، ولكنهم بعد الجهد الشديد ، وضعوا شروطا اعدها شديدة الا انها قبلتها ، قبلتها لانها تود ان تضع حدا لمعيشتها التي تتألم منها

الا تستحق غفران الذنوب التي ارتكبتها مسوقة لا مخيرة

*
* *

ما انتهي الشاب من حديثه ، حتى سمعت هاتفا يقول :

سيئاتك ترجح حسناتك ، وجرائمك تربو على خيراتك ، وما تحملت من العذاب لا يساوى ارتكبت من الذنوب

ولكن هناك طريق للانابه والغفران ، فان سلكت سبيل الرشاد ، تنالين الغفران من رب العرش العظيم

*
* *

انصرف الجمع المحتشد وانصرفت انت الاخرى يتأبط زراعك الفتى وعلى يسارك الفتاة وفي طريقك قابلت فتاة صغيرة تبتسم لك

تبينت هذه الفتاة فاذا هي ابنتي ولقد شاهدت نور الطهر يشرق من عينيها فعلمت انها لا تزال شريفة فشكرت لك تضحيتك وطلبت من رب العرش القدير ان يغفر لك ذنبك

***

هذا ما رأيته في عالم الرؤيا

كنت سبباً فى اقترافها الذنوب .

نعم كنت الممهد لها سبيل الطغيان . ولكن الله نالنى بعض جزائى ومذبنى فى حياتى

اعترف انى مخطىء اعترف انه على وحدى تقع المسئولية

* * *

وهنا ساد سكون طويل قطعته السيدة التى كانت واقفة على بعد منك وقالت :

كنت على وشك ان اصبح كاحدى بنات الهوى لولا اليد الكريمة التى مدتها لى السيدة الماثلة أمامى .

نعم لولا مساعدتها وعطفها لغدوت ساقطة ، ولكن بفضل حسن سياستها استطاعت ان تصير شقيقي يرى ما أرى ويجاهد ليقنع والدى بالراى الصواب دون ان يظلمه على سرى المخجل وذلتى الشنيعة .

واذا اضفت لما سلف مساعدتها لبعض الفتيات فى الزواج ، ومد يد المساعدة للمحتاجات أفلا يخفف ذلك عنها بعض ما تستحقه من العذاب

* * *

وهنا تقدم الشاب وقال :

احببت هذه السيدة منذ رأيتها وقدر الله لها أن تحبنى ، لم أحبها كحبى لبنات الهوى اللائى كنت أتردد عليهن بل أحببتها لنفسها ولأنى رأيت انى ان انتشلتها من ورطتها احسنت صنعا

كانت تجهل عظيم حبى ، ولما علمته ظنته حبا شهوانيا ، كحب الرجال للعاهرات ، ولكني لما كاشفتها به وصارحتها ما فى نفسى . قابلت حبي (بتحفظ)

نعم رضيت بصداقتى ، ثم صرحت بحبها الدفين الذى كانت تكتمه ، والحب الذى كانت تخشى ان تصرح به لان البغي لم تتعود ان تجد من يصغى

وهكذا تعاقبت النساء فى الشكوى ، اما الرجل فلم ينبس أحد منهم ببنت شفه ولكن الطبيب تقدم وقال :

ليس هناك من سبب لاقتراف الجرائم التى ارتكبها سوى الحب الشهوانى

ما كنت أعرف هذه السيدة وما كنت أظن انى سأحبها يوماً ما ولكن هى الظروف مهدت لى ذلك السبيل ، وزوجها هو الذى . سهل لى هذا الامر

نعم كان هو الدافع ، فلولا ان سمح لى برؤيتها لما أحببتها ، ولما غدت هى عاهرة ، وكان لسان حاله يقول :

ها هي امرأتى ، حبها كما تشاء وتهوى ، هى لك ، تصرف بها كما يحلو لك .

نما الحب الشهوانى فى قلبى ، ولكن قابلتنى بالصد ، ولما قابلتنى بالصد ازدادت نيران حبي اشتعالا حتى ملكت كل فراغ قلبي .

حدثت الحادثة المشئومة فتهللت بشرا وفرحا واستخدمت مهنة الطب لانقذ حياة فرد لا يرجى له نفع . فعلت ذلك لأحظى بمن أحب وبعت لها حياة زوجها بأغلى ثمن

شعرت وقت ان ساومت بمهنتى الشريفة لغرض دنيء ، أنى لا أساوى شيئاً وان الحيوان المفترس قد يكون أرحم مني وأشفق .

شعرت بعد تلك اللحظة انه لا ضمير لى لأنى سمحت لنفسى ارتكاب ما حرمه الله

غاب عني الظرف الدقيق الذى كان محيطا بها وياليتنى اكتفيت بذلك بل شوهت سمعتها وحملتها ان تركب هذا المركب الخشن ، وتتحمل ما تتحمل من العذاب

قدتها لحياة العهر وطاوعتنى هي لانه لم يكن لهـا مخرج غـيره وهكذا

أنا لا أشكو المرأة الماثلة أمامى ، التى كانت بطريق غـير مباشرة عـلة مصائبي ، وسبب شقائى

بل أشكو أولياء أمرى المسببين لى الشقاء ، المسببين لى ما أتحمله من ضروب الذل واصناف الفاقه .

نشأت في الريف فى عزله عن العالم المملوء ، بالفساد ، فـكنت سليمة الطوية ، لا أعرف لؤما ولا مكراً ، ولا غشا ولا خداعا

كنت اصدق كل ما يقال لى ولو كان كذبا صريحا

ما كبرت وتزوجت حتى كان نصيبي زوجاً ظالمـاً ، بل وحشا ضاريا

علمنى والدي أن أحب زوجى مهما .كان قاسياً فاحببته ، واخلصت له، واصبحت العبدة الرقيقة والجارية الذليلة . فـكنت أطيعه طاعة عمياء ولم أعرف شيئاً عن دخائله ، لانى لم أتعود ذلك منذ الصغر

تركت حبل زوجي على غاربه ، فساعد ذلك على الفساد ، فتدهورنا في هاوية الفاقة

وبعـد قليل عرفت الحقيقة المؤلمة ، عرفت ان زوجي يحب سيدة بل غانية عاهرة

وسمعت انها متعلمة رحيمة ، ثم عرفت بعد ذلك انها لا تحبه لانها فى شاغل عنه لـكثرة المعجبين بجمالها ، المتهافتين على صداقتها

ولـكن ما ذنبها هى والرجال تتهافت عليها ، وتتقدم اليها بالعطايا وتود امتـلاك قلبها ، وهى ترفض من ترفض وتقبل البعض لتسري عن نفسها بعض همها

كان زوجى يريد الاختصاص بها ولـكنه اخفق لانها كما علمت لم تأذن لعاشق ما ان يشترى حريتها

بل كانت تقابل الجميـع بصورة واحدة

* * *

اللعنه دنيا وأخرى
فالى رب العرش العظيم أشكو هذه المرأة

***

بعد ذلك أخذت السيدة تجهش فى البكاء وخلال بكائها سمعتك تقولين:
أنا لا أشكو الاقدار التى سببت لى العذاب ، ولا الظروف التى قادتنى لحياة العهر ، ولكننى أشكو الرجل مسبب بلائى ، وأشكو الاخلاص الذى طبعت عليه فكان مسبب شقائى

للرجل خلقت ولاجل الرجل ضحيت ، ومن أجله أتعذب الآن
سمعت همساً : أن لذلك الرجل ، الخليل الذى لا أحبه ، زوجة وأولاد
هنا شعرت بالمسئولية الكبرى الملقاة على عاتقى ولما كنت زوجة قدرت آلام زوجته وبؤس أولادة ، لا سيما وقد سمعت انه يسرف فى ماله من غير حساب ، ولذا بذلت جهدي لأردعه عن غيه وأرده لزوجته وأولاده فلم أفلح
نصحته كثيرا ولكنه كان يقابل نصكى بالهزء والسخرية فأوقفت نصحى واستبدلت رأفتى وشفقتى بظلم فعذبته أملا فى ردعه ، وكنت اكافه كثيرا آملة أن يملنى ، كنت أسرف اسرافاً مدهشاً فى ماله وهو يتكرم علىّ بكرم حاتمى .
كان يظهر لى الحب ، وكنت أظهر له البغض ، كان يقابلنى بالاحترام وكنت أقابله بالاحتقار فان غلطت وأظهرت له العطف مرة والرضاء لحظة ، طار فرحا وعد نفسه أسعد مخلوق
كان عقابى اليما وعذابي له مميتاً وسرعان ما افتقرت اسرته وتشرد ابناؤه وفسدت بناته ، وظلم المستقبل في وجه صغاره جزاء وفاقا لما قدمت يداه من الأثم
فهل اخطئت ؟

*
* *

واذا بسيدة تبلغ الثلاثين من عمرها تتقدم وتقول :

ايتها المرأة : كنت شريفة فأصبحت ساقطة . اخلصت لزوجك وضحيت من اجله واجل حبك بعرضك لانقاذ حياته . فاستحققت رحمة ممزوجة بلعنة ولم تقفي عند هذا الحد بل تماديت في ظلمك واستمررت في غيك .فنشرت الفساد وذلك رجاء ان تنتقمي من جنس الرجل الواقف جوارك . من الرجل الذي مهد لك مواطئ الرذيلة

وهنا تقدمت امرأة تبلغ من العمر أربعين سنة ابيض شعرها من الهم لا من الهرم . تقدمت هذه السيدة وقالت :

اشكو هذه المرأة الواقفة امامي ، اشكو هذه الطاغية الظالمة ، اشكوها ويشكوها اولاد تسعة ، سلبتهم حنان والدهم . وقضت على مستقبلهم ، فمنهم من لايزال طفلا في المهد ، ومنهم الفتاة التي تحتاج للتعليم ، ومنهم الشاب الذي يحتاج للمعونة ؛ ومنهم اليافعة التي تؤمل في الزواج

نشأ من هؤلاء لص سارق هو رهين السجن لانه كان يغتصب الاموال ويزهق الارواح ويستسهل القتل ولا يخشاه بعد أن كان ورعا نقيا

وغدا الثاني محتالا يسلب اموال مواطنيه ؛ ولقد ظهر من بينهم السكير الذي يعاقر الخمر ليل نهار ولا يشفي له منها غليل ، وانفرطت من عقدهم الفتاة التي زين لها الشيطان فغدت عاهرة فاجرة تقضي على آلاف مثلي

كنا في رغد من العيش لنا قصور عالية وضياع شاسعة ومزارع متعددة فأصبحنا لا نملك حتى قوت يوم واحد

نعم كان زوجي يشرب الخمر ولكن باعتدال وبعد تعرفه بهذه المرأة اصبح سكيراً مقامراً وغداً فاسقاً ظالما

كنت اسهر الليالي ارقب عودته وانتظر اوبته ، فاذا عاد نالني جزاء انتظاري عديد من الصفعات والاهانات ، وكنت اتقبل ذلك بسرور ، نعم بسرور رجاء ان اصلحه ولكن على غير جدوى

تفرقنا بعد ذلك أيدي سبا ونالنا من متاعب الحياة قسط وافر وحلت علينا

الله بقدر ما بذلت من الدموع وبقدر ما نالك من نار التبكيت

ثم خيل لى أنه يعالج سكرات الموت واذا بصوت شبيه صوته يقول لى :

أى زوجتى . لقد انتقلت للعالم الدائم وتركت الدنيا الفانية وها أنا أسير فى طريق مظلم . فتتمثل أمامى صور تضحياتى باشكال مرعبة مخيفة. هى تسرف فى عذابى وتنتقم منى أعظم انتقام وتشكو الى رب العرش الجليل مر الشكوى يصحب ذلك أصوات تقريع . صادرة من أرواح تتطاير هنا وهناك : هى أرواح الاجنة التى أجهضتهن تلك الاسيفات خوفا من العار

أراهن الآن عابسات بعد ان كن ضاحكات . هازئات بعد ان كن رزينات باكيات بعد كن فرحات

أراهن يسببن تعاستى بعد ان سببن مسرتى . يسببن آلامى بعد ان سببن أفراحى

أتعذب اليوم عذابا اليماً وذلك جراء ما اقترفته يداى

***

أشاهدك آتية من بعيد وخلفك جم غفير من الصبيان والشيوخ وكل يحب أن يتقرب منك . وكل يحب ان يماشيك فأقول فى نفسي :

ما بال زوجتى . أغدت ولية يسعى الشاب والشيخ ليتقرب منها

وبينا أحدث نفسي اذا بهاتف يقول :

أنظر خلفك

فأنظر فأرى جيشاً من الفتيات والنساء أعمارهن مختلفة . وهن باكيات نادبات . ثم أراك آتية بعدهن يتبعك الطبيب النذل على اثره شاب فى مقتبل العمر

اصطفت الرجال فى جانب والنساء فى آخر . اما انت فوقفت فى الوسط جوار الطبيب وعلى مقربة منك الشاب . ثم رأيت سيدة قادمة من بعيد وقفت جوار الشاب

لم استطع ان افهم لهذه الالغاز حلا . وبينا أنا مرتبك اذا بصوت يقول

بى أرى عينيه قد فتحتا والطبيب قد ابتسم ولكننى أرى زوجى قائما من فراشه صائحا :

يا لك من حيوان مفترس ، يا لك من لص دنىء ، يا لك من قاتل سفاح ، أنت يا من تصف لى الدواء ، وترجو لى الشفاء ، وتطلب لى الحياة ، مستعملا مهارتك لمداواتى . أنك تجهز على روحى ، وتصبنى فى أعز عزيز لدى ، تصبنى فى عرضى لتهبنى علاجا ناجعاً

يالله من هذا التضارب ، تشفى من ناحية وتميت من أخرى ، تنتهز الفرصة لتتغلب على المرأة القديسة التى ضحت عرضها لتهبنى الحياة

تحنث بالقسم العظيم قسم أبى الطب (أبقراط) ، الذى حلفته وقت أن تخرجت ، تحنث القسم ازاء لذة دقائق ، ثم تمنى على بالفضل واكون أسيراً لك طول حياتى ، لانك أنقذت حياتى وخلصتنى من مخالب الموت

ولكن زوجتى دفعت اليك الثمن أضعافا مضاعفة . دفعت اليك شرفها وطهارتها فكنت من القوم الخاسرين

أى عدوى المتقمص ثوب الصديق : أتوسل اليك لا بل أتضرع ، أن تقضي على . لا ! لا ! بل أبذل جهدك وعلمك لنجاتى ، نج حياتى لا أدافع عن زوجتى وابنتى لا نتشلهما من العار الذى قدتهما اليه

أستحلفك بالله أيها الصديق ، ألا تمس بيدك النجسة هذه الزوجة الطاهرة

ابعد عنها ، توارى عن عيون الناس ؛ لا تحترف صناعتك الشريفة التى دنستها بيديك الاثيمتين

وأنت أيتها الزوجة . يا من دفعت أثمن ما تملكين لتنقذى حياة زوجتك الذى لم يرع حرمتك . ولم يصن شرفه . كما حافظت أنت على عرضك

ضحيت رأس مالك كله لتنقذى شرفى ، فضلت أن تصبحى فقيرة لا تملكين شيئا حبا فى انقاذ حياتى . ولما طلبت حياتى تضحية أخرى ثمينة . قدمتيها وعينك تذرف الدمع وقلبك يتألم مدفوعة لذلك بعامل الاخلاص فليسامحك

لي أن أسكن البيمارستان . لاني لا أرى فيه هذه المناظر التي ترعبني وتخيفني

لا ! لا ! أن زوجتي مخلصة ، بل هي قديسة طاهرة ، هي ملاك كريم هبط لينشلني من الجحيم ، ولقد أرسل الله هذه الابنة لتساعدها في مهمتها الدقيقة ، وتسرع في تطهيري من الفساد والرجس

— ولكن . هناك شك . شك كبير يملأ جسمي ، هو متسلط على جميع عواطفي ، ذلك الشك سبب شقائي

أريد ان اكاشفها به ، أريد أن أقول لها :

أي زوجتي . اقسمي لي . احلفي لي بأغلظ الايمان وبحياة ابنتك الطاهرة انك حتى اللحظة لم تعرضي سمعتي وشرفي للعار

ـ اسرعي بالله عليك . قولي نعم

ان كل كلمة (نعم) التي تنطقين بها هي عزائي الوحيد ، هي مزيلة اشكوكي هي مسكنة لآلامي ، هي بلسما لجراحي

ولكني كلما أحاول ان اطرح عليها هذا السؤال أتمثلها أمامي تبكي وتنتحب ثم ترمقني بنظرة غريبة يعقبها تأنيب مؤلم وكأنها تقول لي :

أشككت مرة في ذلك ؟ انك كنت فعلت فلم لم تحدثني الا الآن ؟ لم لم تميط اللثام عن نفسك الخبيثة وسريرتك الفاسدة الا اللحظة ، التي أهنئ فيها نفسي بنيل أملي ؟

الا فاعلم ان كنت لا تعلم ، الا فتيقن اني است مثيلتك في الغدر

عند ذلك لا أستطيع ان أخادعها كما كنت اخادعها بل قد لا أستطيع أن أنظر لها . وكم يحلو لي وقتئذ أن أقبلها وأن أعترف لها بصراحة وأقول :

كثير ما خنتك لكنني سأتوب

ولكن الاباء والشمم يمنعني عن أن أعترف بهذا الامر المخجل

*
* *

ثم أراه نائما في احدى نوباته . والطبيب يحاول أن يعيد اليه صوابه واذا

كل شيء فى الحياة اللهم الا لذتي . وسعادة اللحظة

عند ما أفكر فى ذلك وعندما تتجلى أمامي هذه الحقيقة بشكلها الحقيقى يسقط فى يدى وأفكر ثم أفكر عساى أجد لى مخرجا ولكن عبثاً ، عبثاً انى لا أجدالا مخرجاً واحداذلك هو أن يطيل الله عمري وينسيء فى أجلي ويحفظنى من الموت الذى أخطي له بخطى واسع حتى أستطيع أذا كفرعن ذنبي وأنيب الى الله العظيم وأركع بين يديه طالباً الرحمة والغفران فعسى اللهان يقبل توبتى وانابتى ويعدنى صالحا

ولكنى أشعر انى لا أستطيع ان اكفر عن جرمي الشنيع فأتوب التوبة بمعناها السامي . بل ان قلبى يحدثنى . أن اليوم الذي ينتهك فيه عرضى قريب، سوف يحل فأفى بذلك ديني . ياهول ذلك اليوم !!!

***

ثم أراه وقد تمالك صحته وأرانى جالسةجوارهأحدثه ويحدثنى ثم لا يلبث أن يطرق فأرى كأنه يحدث نفسه قائلا :

أأسألها ؟ أأقول لها ؟ أأقول لها ألا تزالى محافظة على عهدى ، باقيـة على شرفى ، أم قد غرك الشيطان فزين لك الاثم وحبب لك الفساد ؟

هى أم ابنتى وها هي ترضع وحيدتى لبنها فهـل ذلك اللبن الذى يغذى هذه الابنة شريف طاهر أم غير شريف ؟ فان كان الثانى فلقد قضى على ،وقضى على شرف ابنتى ، ولخير لى أن أسكن اللحد من أن أسكن القصر ولأجاور الموتى فعساى اطهر جوارهم من أن أفسد جوار الاحياء

هناك سؤال آخر يجول فى خاطرى أريد أن أسألها فيه

هل هذه ابنتى أم ابنة سفاح ؟ وهل هى لى وحدى أم لآخر فيهانصيب

وهل حبها ستقسمه بيننا نحن الاثنين أم لآخرين فيـه نصيب وهل ستخاص لى ولانها وحدنا أم هناك مشارك لنا فى الحب ؟

ياالله من هذه الافـكار ، ياالله من هذا الـكابوس العظيم انى اكادأجن ولخير

كالعبد الرقيق ، أو كالخادم المطيع

ينفذ الانسان ما يصدره له ابليس اللعين من الاوامر ، وما يغريه عليه من الشر والاثم ، وتلك سجيته لانه أغرى أمنا حواء أن ترفض النعيم المقيم فى الجنات التي تجرى من تحتها الأنهار وتقنع بالزخرف الكاذب والطلاء المموه

لفل سجل ذلكم الشيطان على الانسان الشقاء الدائم ، وكان الشقاء ميراث الاباء للابناء فيا له من شيطان خسيس دنئ ، يسبب بلاء عظيم ، ويولد فى الصدور حقد كمين ، فيسبب بغض كبير ، فيفسد عباد الله البررة الصالحين

انى ان رأيت أخ ابليس اللعين ، الوغد اللئيم ، هاجما عليك يريد اغتصابك فانى أتقدم نحوه بسرعة ، هائجاً مائجا ، مرغياً مزيداً ، ساخطا لاعنا ، وأنقض عليه وأخمد أنفاسه وأسقيه كأس الحمام جزاء وفاقا

لا أتبين ان كان لى صديقاً حميا ، يخلص لى الود ، فانه لو كان كذلك ، ما استباح عرضك وهتك شرفك . أو كان لى شقيقاً بارا بى رحيما ، لانه لو كان كذلك ، ما رضى أن يخدش عرض أخيه ، أو كان ديناً عظيما ، يقضى نهاره راكعاً ساجدا ، متقربا من الله متوسلا له ، لانه لو كان كذلك ، ما سولت له نفسه أن يحلل ما حرم الله وهو أعلم بدين الله من غيره . أو كان ملكا عظيما يمسك بيده عصاة الامارة ، ويحمل فوق رأسه تاج الملك ، لانه لو كان كذلك لعرف أنه مرآة لشعبه فعليه أن يحسن سيره ، أو أنه راع وعلى الراعى أن يكون مثال الكمال لا مثال الفساد

انى ان قتلته وشربت من دمه ابتسم ابتسامة الظفر ، لا أبالى ان حاكمنى القانون فحكم على أن أقضى بقية حياتى سجينا ذليلا ، أو أصعد المشنقة لالاقى حتفى

ولكن عند ما أفكر انى أصبحت أباً أصبحت والد ابنة ، والدفتاة لها عرض وشرف وسمعة ، وانى أنا والدها الهاتك للعروض ، المسقط للشرف الضارب بكل ذلك عرض الحائط ، الساخر بكل هذه السفاسف ، المتعامى عن

نعم ! أنت لا تعلمين أتقبل التضحية أم ترفض ؟ أيبرء زوجك أم يموت ولكنك قدمت نفسك قبل أن تعرفى النتيجة ؟

ذلك ما كنت تفكرين فيه ساعتئذ أما أنا فلم أفكر الا فى قضاء شهوتى وهكذا يكون الظرف الدقيق سلم الفوز والنجاح ، فلولا حبه لى ولولا اخلاصه لنيل بغيته ما استطاع أن ينتصر علي في كلتا الحالتين ينتصر على ارادتى القوية ، لقد توالت انتصاراته وأقبلت عليه الدنيا بعد أن ضحكت له مرة

***

شاهدت بعد ذلك زوجى جالساً ، ثم رأيته جالساً على مقعد فى الحديقة واذا به يحدث نفسه أى

زوجتى ، جنيت عليك جناية كبيرة وسببت لى عذاباً أليماً . أعرضت عن نصائحك وأغضيت عن أغراضك النبيلة فحنثت بقسمى وخالفت ضميرى . لم أفعل ما أمرت ولم أنفذ ما وعدت به ، بل تماديت فى الغي والضلال واستمررت في الفساد فلذ الى الفساد وأصبح حبيباً لى ، فرضيت به وفضلته عليك فأخطأت الاختيار

وعدتك ألا أقرب البغايا فصدقت فى وعدى ، ولكنى قربت الطاهرات الشريفات العقيلات المصونات ، والعذارى من الفتيات ودنست طهارتهن وقضيت على شرفهن

ولكنى كلما فكرت أنه كما يدين المرء يدان وكما يفعل بالناس يفعل به ، كلما فكرت أنه سوف يأتي يوم يكون نصيبك فيه ، نصيب الفتيات اللائي أصاحبهن والعقيلات اللائى أخالهن ، كلما فكرت فى ذلك تثور نفسي ويغلى دمى ، ولا أستطيع أن أتصور صورة ذلك الوحش الضارى الذى سيهجم عليك فينتزع طهرك ويسقطك فى الهوة العميقة

ان عمل كهذا اثم كبير ، بل مصاب جسيم ، وجرم عظيم يرتكبه الانسان عندما يوسوس له الشيطان ، فيتغلب عقله ويمتلك ارادته ويسيره فى يده

وأنقصوه حقه . واذ به يقول بصوت جهورى

أؤكد أن شفاءه ممكن وسأباشر العملية الجراحية بنفسي بعد أن ينقطع النزيف

ثم رأيت الطبيب يدخل غرفتى فى اليوم الموعود ، ويترنح طرباً وسرورا واذا به يحدثنى حديث انتحار زوجي ويطلب منى أن أقدم له نفسى جزاء انقاذ زوجى

***

ثم شاهدته فى اليوم المشئوم ، يوم أن سلب عفافى يدخل باب غرفتى وهو يقدم قدماً ويؤخر أخرى ، وأظن أن الخمر التى شربها لتجرؤه على ارتكاب الجريمة قد لعبت برأسه ، واذا به يقف فى منتصف الغرفة ويشرح لى حبه الكاذب فيقول :

لو تعلمين يامعبودتي قدر حبي لك وعدد الليالي التي سهرتها أناجيك فيها فكنت اذا طلع القمر سألته عنك لو تعلمين ذلك لاشفقت على

لقد كان اليوم الذي أزورفيه صديقي أحب الايام لدي وكنت أود من صميم الفؤاد زيارته كل يوم لاتمتع برؤيا شخصك المحبوب ولكن هي الأعمال ـ قاتلها الله ـ كانت حجر عثرة في سبيلي ، ـ وأنت سامحك الله ـ كم مرة لم تقابليني فيها ؟ وأظنك لاحظت اني بك مغرم وبحبك أتحرق فاثرت عدم مقابلتي لتخمدي نار حبي

ولكني كنت أنتظر . نعم أنتظر يوما ترتمين فيه بين ذراعي وقلبي يحدثني أن اليوم سوف يحل وهاهي الآمال قد صدقت والأحلام قد تحققت وأصبحت لي

أنت تقولين ساعة واحدة ولكن هذه الساعة تعقبها ساعات وأيام

أجل لك زوج وما رضيت بخالاتي الا لتنجي زوجك فاشتريت حياة زوجك بعرضك ، وياله من ثمن باهظ

أعتقد أن الحب واخلاصك لزوجك هو الدافع لك أن تعملي هذا العمل ،

وداعاً والى اللقاء فى جنات عدن

لا ! لا !

أظننا لا نتلاقى لاننى سأكون ضيف جهنم أما أنت فضيف الجنات التى تجرى من تحتها الانهار .

ثم رأيته مضرجا بدمه وسمعته يهتف باسمى عند ما أطلق الرصاص على نفسه .

***

وشاهدت بعد ذلك ضجيجاً فى غرف النادى واذا بالجمع يتسابقون ويتحادثون فيما بينهم ويقولون من الغائب منا ؟

وتراكضوا بعد ذلك صوب الغرفة الموصدة ، ولما دخلوها خلعوا قبعاتهم خاشعين عند ما شاهدوا الجثة

ثم أرى صديقى الطبيب يحضر ويسرع نحو الجثة واذا به يقول للجمع .

لم يمت بعد لانى أسمع دقات قلبه . هناك أمل ولكنه أمل ضعيف ضعيف جداً

ثم شاهدته يحاول قطع النزيف هو والاطباء الذين دعاهم ؛ ولما انتهى من عمله قال لهم :

ـ أتظنون أنه يعيش ؟

فقال الجميع بصوت واحد

ـ لا نظن لان النزيف مستمر

ـ اذن قطعتم الامل من شفائه

ـ نعم الامل كله

وهنا ظهرت على وجه الطبيب ابتسامة الظفر ؛ ابتسامة من يجهد قريحته ويكد ذهنه ملتمساً طريقاً يفوز به على زملائه الذين قطعوا الرجاء ، ثم رأيت ابتسامة أخرى هى ابتسامة الانتصار على الاجانب الذين احتقروا المصرى

عن يمينه ويساره ، ثم رأيت وجهه مقطباً وعلامات الحزن مرتسمة على جبينه وذلك لتتابع خساراته

لقد تآمرت هذه الفئة على سلب أموال زوجى بطرق شريفة فى نظرهم وقد تكون كذلك في نظر الجميع . ولكنها فى نظرى طرق دنيئة فان لم توافقنى على رأيى فبالله حدثنى ما الفرق بين اللص السارق الذى يسطو على منزلك فيسلبك مالك وأثاثك أثناء غفلتك وبين ذلكم اللابس لباس الاشراف الذى يغتصب مالك بطرق شريفة . السارق يسرق . فيحاكمه القانون . أما المقامر فلا يحاسبه القانون جزاء ماجنى من ربح . قد لا يسرق اللص بقدر ما يغتصب المقامر ولكن هكذا قدر لكل منهما فالاول له السجن والعذاب والاهانة . وللثانى الربح والغنى والتنعم بحريته

* * *

ثم رأيت زوجى يغادر قاعة الميسر ويختلى بنفسه فى غرفة من غرف النادى ويقفل عليه الباب من الداخل ورأيته يسحب المسدس من جيبه ويصوبه على صدره وكأنى به قبل اطلاقه يحدث نفسه بصوت مرتفع قائلا :

ـ آه يا زوجتى العزيزة ، لقد جنيت عليك ، لقد غدوت فقير لا أملك شيئاً ، أما أنت فأصبحت معدمة لا تملكين الا النذر اليسير ، لقد سجلت البؤس والفاقة على الجنين الذى تحملينه فى أحشائك

أفبعد هذا تطيب لى الحياة ؟ ؟

لا ! لا !

فى الموت خلاصى من هذه الورطة

نعم الموت هو المسكن لآلامي

لن أجبن بل سأقتل نفسى

فالوداع يازوجتى المسكينة

وداعا يا طفلى يامن حكم عليه لا يرى وجه أبيه

٢٥

الماضى

قضى الامر وتقرر زواج شقيقة طفلى بالصديق المهندس ثانى الاصدقاء المخلصين للمرحوم زوجى ، وقد قبل الزواج بها لانه يحبها ولانه مل المعيشة التى يعيشها ، ولقد كان الحب هو الدافع له على هذا الزواج

كنت انا وطفلى العامل الأكبر فى فوزه وهكذا نالت الصديقة أمنيتها وأصبحت أنا خليلة لطفلى وأن شئت فقل زوجة موقتة ،زوجة لا شرعية لانه بعد مضى سنة اغدو زوجته الشرعية

أمهلنى طفلى اسبوع لاسدد كل دينى وأبيع أثاث منزلى

ولما أخذت على نفسى اتمام هذه الاعمال تركنى طفلى وذهب ليعد المعدات لحياتنا المقبلة

*
* *

أخذت أفكر كيف استعد للمستقبل ؟ وكيف أمهد سبيله ؟ فرسمت لذلك عدة برامج لم يعجبنى احد منها

ولما تعبت من التفكير وشعرت بحاجتى للراحة لاسيما وقد أخذ الكرى بمعاقد أجفانى

ذهبت لفراشى لأستريح . وفى نومى رأيت رؤيا ، رأيت ماضى متمثل أمامى بأجلى صورة . رأيت زوجى ثائر النفس من جراء المحادثة المهينة ثم رأيته جالسة قبالة منضدة الميسر ورسل جمعية لصوص الاجانب ملتفة حوله

أردك لحياة الشرف ان شئت . اما ابنك فسأ كفل تربيته وأضمن له مستقبلا ان شاء الله يكون باهرا ما دمت على قيد الحياة فان استمعت لنصحي ، وقبلت مشورتى أرتضيت بخادمي زوجا لك ، وهو سيكتم سرك ، وتكونين سعيدة معه ،

— كيف لا أقبل يامولاتى وكيف أنسى معروفك سأكون له عند رأيك وما دام زواجى بخادمك يسرك ، فسأكون له زوجاً وسأجتهد ألا أخالفك فى أمر مهما كان .

وهكذا أثرت عليها الاثر اللازم

ويسرنى ان أصرح ، انى شعرت بارتياح لانى تمكنت من انتشال فتاة من حياة العهر لحياة الشرف

ذلك السيد الخائن الا أن تداركتنى سيدتى بعنايتها

هذه هى قصتى وفي الوقت ذاته ، قصة كثيرات من خدم القصور وقصة بائسات ممن غرهن جمال العيش والزخرف .

الآن وقد سمعت ياسيدتي سبب نكبتي . أتظنين ان سيدى الطبيب سيعترف بابننا ؟ أتظنى انه سيقبلنى بعد ذلك فى قصره ؟

فقلت وأنا افكر

لا ا لن يفعل .

ثم تابعت حديثها وقالت :

أيتها البائسة ، ان ما نالك جزاء وفاقا ، ان ما أصابك عدل ، فلو كنت عفيفة لكان لك مستقبل ، أجل ستكونين فقيره ، ولكن فقيرة شريفة .

لقد جاريت نفسك الامارة بالسوء واستمعت لكلماته العذبة واضربت صفحا عن نداء ضميرك ، لقد سلمت له نفسك طائعة مختارة لانه خدعك بحديثه — والحق يقال — وهو مشهور برقيق عباراته ولقد خدعت قبلك فلا بأس عليك .

نعم هناك تباين بين ظرفى وظرفك . أنت سلمت نفسك استبقاء للقمة تأكلينها وعيشا تظنين أنه سيدوم لك ولكنى سلمت نفسى استبقاء لحياة زوجى . فشتان بين صنيعى وصنيعتك كان جزاء زلتي عيش العهر ردحا ، ولكن ذلك لن يكون جزاءك — ان سمعت نصحى —

نعم قد يلتمس لك بعض عذر وقد تكون ضعف ارادتك من أسباب سقطتك وعلى كل حال انت ضعيفة بجانب السيد الطبيب بل ضعيفة جداً بجانب مولاك الذى تحبيه بعض الحب

سرت فى طريق مهده غيرك من قبل من خدم ، من روجال ، من آنسات .

ولكن هناك رب رؤوف رحيم ، هناك عفوا ومغفرة ، باستطاعتى ان

فقصدت غرفتي وطرقت الباب ولما أعياها الطرق فتحت الباب ونادتني باسمي وطبعا لم ألب النداء . فركضت نحو غرفة زوجها لتدعوه لمساعدتها ، فرأت على ضوء القمر انى نائمة فى سريره ، وعند ما شاهدت هـذا المنظر صرخت صرخة هلع لها فؤادى وانزعج هو الاخر لها

قمت من نومى المشئوم ، خائفة وجـلة واذا بى أرى سيدتى مرتمية على الارض فاقدة الرشد .

أسرعت لحملتها ووضعتها فى فراشها ثم عدت لسيدى اسأله رأيه فى هذا الحادث فـكشر في وجهى وأعرض عنى ، فغضبت هذه المرة وعددته نذلا . وذهبت للعناية بسيدتى حتى استفاقت من أغمائها وطبعا ساعدنى فى ذلك سيدى الطبيب

وبعد ان أتممت مهمتى ، تواريت عنها لئلا أزيد ألمها ، ولـكنها بعـد ان تمالـكت شعورها طلبتنى فى حجرتها وقالت لى :

— ماذا كنت تصنعين فى غرفة زوجى وعلى سريره

آه ياسيدتى إنى أطلب منك الصفح ، لقد أغراني سيدي وأنا خليلة له منذ تسعة شهور ، وهو والد الجنين الذى أحشائي

ويظهر ان سيدى كان قادما فسمع اعـترافى ، فانتهرنى وشتمني وأمر الخدم بطردى خارج القصر

طردت على اشنع صورة . حتى ان سيدتى لم تتمكن من التفوه بكلمة لان اعترافى المخجل صعقها مكانها وبذلك نال سيدى مأربه ولم يجد له معارض فطردنى رجاء أن تغفر له زوجته ذنبه ولـكن هيهات فلن تغفر له هذه الفتاة المسكينة لانى اعرفها فتاة طيبه القلب وديعة ولـكنها فى الوقت نفسه لاتحبه ما دام قد خانها ولذا ارجح انها ستلزم صرح والديها

سرت فى طريقى وكنت أبكى اثناء سيرى ولما أعيانى السير وأنذرنى المخاض جلست فى الطريق وصرت أندب سوء حظى ، واستنزل اللعنات على

— هذا ما كان ولكنى لم أظن يوما ان مصيرى سيكون كذلك

— ألا تعلمين ان الجزاء من جنس العمل ؟

— هذا حق ، ولقد انبنى ضميرى ولكنى لم استمع له .

— حسناً . تممى قصتك

— ولم يمض على زواجنا اللاشرعى أكثر من شهور ثلاثة حتى شعرت اننى أحمل جنينا فى أحشائي ، فقصصت له القصة فذعر وخاف فاعطانى دواء مجهضها ، ولكنى ابيت أن اتجرعه لانى خفت عاقبة الاجهاض . وحو الى منتصف الشهر السابع تمارضت وساعدنى هو على المرض وذلك خوف ان تشتبه سيدتى فى امرى ولكنها اشتبهت وفهمت الحيلة فذهبت الى أن احدهم قد اغرانى ، لم تفكر هى لحظة ان زوجها هو الجانى على . . . . .

مسكينة هي . ألم تسأل زوجها فى هذا الصدد .

— لا لم تسأله .

— وكيف كان موقفه ؟

— لقد كان موقفه غريباً . تجاهلنى وأراد طردي ولكنها صرت على استمرارى فى منزلها واستصدرت لذلك أمر من والديها بذلك ، ثم شرعت تبحث عن النذل الدنيء الذى اسقطنى ولكنى لازمت الصمت مراعاة لشرف سيدى . .

— مسكينة أنت . وهو ما ذا صنع . . .

بعد ذلك صالحنى سيدى مرة أخرى وكنت اجد فى هذا الصلح رجاء أن امهد مستقبل طفلى .

وذات ليلة أمرنى سيدى ان اقضى ليلتى عنده ، وحدث هذه الليلة ان سيدتي كانت متوعكة المزاج وأنها احتاجتنى لمساعدتها ليلا فى اشعال نار الموقد

خرجت من غرفتها فصرخت تدعونى ولكني لم أسمع لأنى كنت نائمة

انتظاره تبادل بعض الحديث معه ، ويظهر انه خبيث لانه بعد حين راودنى عن نفسي . فابيت . . . . .

— أتستطعين أن تخبرينى عن اسم ذلك الطبيب ؟

— آه لقد نسيت هو يدعي الدكتور حسني . . . . .

— أهو الدكتور حسنى . . . . .

— نعم هو أتعرفه مولاتى . . . . .

— آه يا رباه هو دائما . . . . .

— ما بال سيدتى أ كان لها مع الطبيب حادثة .

— لا شيء ! لا شيء ! تمى حديثك ! تمى حديثك !

— . . . أصر سيدى على طلبه وأفهمنى انه يجب تنفيذ رغبته فى القريب العاجل .

وذات يوم عزمت سيدتى زيارة والديها وقد اعتدت ان اصحبها في هذه الزيارة ولكن سيدي أمرنى ان اتمارض فتمارضت — لانى اعترف انه فتنني — وفى هذا اليوم المشئوم فتك زوج سيدتى بى فخدش بذلك عرضى وأنا مسلمة له كل التسليم لا أقوى على المقاومة ، لانىان قاومت نلت العذاب الاليم ، فلا اقل من ان اطرد ذليلة مهانة وانا الذى لا نصير لى فى العالم — لان والدى توفى —

إن اغلبنا معشر الخدم كذلك تسلب أسيادنا عفافنا و نرضخ لهم خوفا من الطرد . والخـدم تطاوع أسيادها فى كل ما تأمر ما دام امرها لا يفتضح ، تسلم لسيدها عرضها رجاء كسرة خبز تأ كلها فى قصره ، لانها تظن ـ وحتى الساعة أظن ـ انها ان رزقت زوجا فلن يسعدها هذا الزوج فى حياتها ، ولذلك نفضل ان نصبح محظيات لا ولياء نعمتنا واعرف كثيرات فعلن فعلتى ولذا لم احجم أن اسلك هذا السبيل . . . .

ـ فضلت عيش العهر وانت منعمة على عيش الشرف معذبة ؟

شفوقة. ولم أشأ منذ أول يوم . اكتشاف سرك لأترك لك حرية الافضاء به

أخشي أن يطول العهد ، إن تصرحي فيأبي الوالد الاعتراف بابنه

اكرر لك انى سأبذل جهدى لاقناعه بالاعتراف به

ـ أتثقين أن سيدى سيعترف بابنه ؟

ـ ذلك أملى

ـ شكرك يا سيدتى واجب علىّ ومعروفك لا أنساه أبد الدهر . وأرى أنه يجب على أن أصرح لك بكل شيء .

انى يا سيدتى خادم فقيرة وضعني والدى المحتاج فى أحد قصور الاغنياء بعد أن تعلمت قليلا .

لازمت في قصر الغنى فتاة القصر التى كانت تكبرنى بسنتين. فكنت تابعة لها أتنقل وقت تنقلها . وأضحك اذ ضحكت ، وأحاول تسليتها اذا اكتأبت . ومشاركتها البكاء ان بكت

لقد كانت سيدتى بارة بى فاحبتني من صميم قلبها وأحببتها أنا بدورى لانى وجدتها تعطف على .

ان ملازمة سيدتى . ونمط معيشتى معها أفقدنى كل ارادة . فاصبحت مسيرة لا رأى لى فى أمر . يستطيع الطفل الصغير أن يقودنى حسبما يهوى . ويسيرنى كيفما يشاء

ولما آن أوان زواج سيدتي . خطبت لرجل في مقتبل العمر خطبت لنطاسى ماهر . وسمعنا بعد الخطبة كثير من الاحاديث حوله . ولكن لا فائدة فقد « سبق السيف العذل »

انتقلت مع سيدتى لبيتها الجديد ، ولا زمتها كما كنت ألازمها وهى فتاة .

تعود سيدى أن يتأخر ليلا ، وكلفتنى سيدتى ان انتظره ، ونتج من

أعلم حقيقة أمرها فالا تركها قليلا وبعد ذلك أسألها عن السافل الذى أسقطها

انقضى الاسبوع الاول بعد ولادتها وذات صباح دخلت عليها فى غرفتها التي أعددتها لها . فوجدتها تحمل طفلها بين يديها وتقبله حر التقبيل .

فقلت لها :

ـ أسعدت صباحا . أظنك تخشين أن أطردك فتصبحين تحت رحمة القدر كما فعل بك مولاك . لا تخافى يا عزيزتى فاني سأعتنى بابنك أيسرك ذلك .

ـ شكرا يا سيدتي لن أستطيع أن أف معروفك قدره يوماً ما لكن بالله حدثيني من حدثك أن مولاى طردنى

ـ لم يحدثني أحد ولكنى أتنبأ بذلك فان أطلعتينى على سرك قد أستطيع مساعدتك .

ـ وماذا تطلب سيدتي ؟

ـ أريد أن أعرف لمن ينتسب الطفل ؟

استولى على الخادم علامات الارتباك المخي الشديد وحاولت أن تفصح ولكنها أخفقت فاستدرجتها الحديث وقلت :

ـ اسمعى أن ذلتك كل السقطات النسوية وكثيرات هن اللائى عملن عملك . وأظن أن الدافع لك على ذلك الامانى والوعود الجميلة .

لقد استطاع مولاك الرجل أن يكتسب من ضعفك قوة على قوته. ومن ضعة مركزك سيطرة

أطلب منك أن تقولى من والد هذا الطفل . وهل باستطاعتى أن نضطر الوالد أن ينسب له الطفل . ان كان ذلك ممكن فقد انتهى كل شئ ؟

سوف أساعدك فى هذا السبيل بكل جهدى وسوف أبذل مكانتى فى تتميم أمنيتك وبالمال لا أبخل عليك

أعرف أنك تخجلين أن تصرحى . ولكن لتعلمى انى لست غضوبة بل

شبيهات لهن في الداء لا بل أساتداتهن ـ بواسطة قليـلات من الصاحبات الفاسدات من بنات الاغنياء . يستطعن أن يغرين أمهاتهن ـ وهن غالبا بسيطات ومربياتهن الافرنجيات اللائى لا يهمهن فسدن أو لم يفسدن . هذا ان لم يكن هن الزارعات لهن الفساد منذ الصغر .

كل المربيات الافرنجيات من الطبقات الدنيا . من الاسر الوضيعة الخسيسة لا بل من عامة الشعب أو من القرويات الساذجات

لا يعرفن الا لغتهن ـ ولقد تعلمن ذلك بحكم التعليم الاجبارى في وطنهن ـ وقليل تافه من التربية تلقينه قبل مغادرة ديارهن .

ولـكل مربية أفرنجية خليـل ـ على الاقل ـ وهو فى الغالب مصرى . ومما يضحك الثكلى أنه قد يوجد بينهم عدد من شبابنا المتعلم . وقد يكون للمربية الواحدة أكثر من خليل فيتنافس كل فى تقديم الحلى وبذل الدرهم . ويقتضى عنايتها بخلانها اهمال من تعتنى بتربيتها ،

ولما كان كل المربيات كذلك . نشأ من ذلك أن الفتاة الصغيرة تصـادق الفتى الصغير وهكذا تنمو المودة بينهما ويصبحان عشيقين يتبادلان التلاقي عصر كل يوم .

*
* *

بعد اللتيا والتى استطعت أن أنقل الفتاة لقصرى حيث أستطيع أن أمهد لها الراحة .

لاحظت أن الفتاة حزينة جد الحزن . تتأوه من كبد حرى . فتحققت أنها قد خدعت وأن الجنين الذى تحمله فى أحشائها لن يعرف له والد .

حاولت قبـل الوضع أن اكتشف سبب قرحتها لكنى أخفقت فتركتها وقلت فى نفسى :

صبرا . فسوف أعرف بعد قليل ما أجهد نفسى اليوم فى معرفته. سوف

ضعيفا ينتشر فى الفضاء . تكرر الصراخ وصرت أسمعه بصوت جلى وعن بعد رأيت جمعا يحتشد

وجدت دافعا يدفعنى لان أعلم سبب هذا الصراخ وعلة تجمع الناس ، فسددت خطواتى نحو الجمع فاذا بى أرى بينه فتاة باكية واذا برجل الشرطة يهرول ، وبصوته المزعج يصيح ليجد له مكانا لضبط الواقعة ، ومن الغريب أنك ترى رجل الشرطة يكثر من الجيئة مثل هذا اليوم بينما هو فى الايام الاخرى منزويا لا يعثر عليه الانسان

احتشدت بين الجمع فسمعت تناقضا فى الحديث وتباينا فى القول ، حرضنى ان أقتحم اللجة وأشق السياج الآدمى لاكتشف حقيقة حال الفتاة المنكودة الحظ ، وبعد الجهد الشديد وتكرار الدفع للامام والتقهقر للخلف استطعت أن أكون قريبة من المسكينة . فاذا فتاة بدينة عليها مسحة من جمال

بعد ان ألقيت نظرة على البائسة ، استطعت أن أعلم أن المسكينة حامل وهى على وشك الوضع وتنبأت أنها لابد أن تكون خادم وأن يكون سيدها هو الجانى عليها وهو طاردها من قصره

وجدت أن الواجب يدفعنى أن أمد يد المساعدة لهذه المسكينة والانسانية من جهة أخرى تفرض علىّ ذلك ، هذا ان طرحت العاطفة النسوية جانبا

لم اكن السيدة الوحيدة وسط هذا الجمع ، لكنى كنت المصرية الوحيدة أجل هناك كثيرات من المصريات يقصدن هذه الجهات ، ولكنهن يستترن دائما داخل عرباتهن وسياراتهن ، ولا يهمهن جمع حاشد كهذا الجمع حتى ولو نمى اليهن أن المجنى عليه عزيز عليهن ، لانهن يخشين عذول يفضح أمرهن ويضيع حذا التسترهن وتنزههن المتتابع ، تحت ستار الغش والخداع ، تحت ستار النفاق اعتدن فتيات الاسر الكبيرة خدع أمهاتهن — ان لم يكن من الاخريات

٢٤

الطريدة

خرجت يوم الاحد وحيـدة وفضلت السير على الاقدام لأكون ناظرة على المتنزهين

كان الوقت أصيل وقد أخذت ذكاء تختفي وراء الافق ، وبدأ البدر ينشر نوره اللامع على الارض المجلببة بالسواد

طفقت ربات الجمال وبنـات الحسن ، وفتيان الظرف وشبان الكياسة ، تنتشر في أحياء الجزيرة تبحث عن طريدة ، فالفتاة تنقب عن فتى يقطع الوقت معها ، والفتى يبحث عن فتاة تسري عنه بعض همه

لا ترى أصيل كل أحد في منتزهات الجزيرة الا شابا ظريفا لطيفا يغازل فتاة فتانة رشيقة ، وحبيب يحلف لحبيبته بأكبر الايمان ، انه بهـا مغرم ، وبوصالها ينال السعادة

تشاهد فيها ساقا على ساق ، وعينا تتلفت وتبحث تخشى رقيباً يفاجئها فيعكر هناءها وصفوها ،تشاهد نحرا على نحر ، ويدا على خصر ، تشاهد سريا عجوزا يميل على غانية فتانة فيغتصب منها القبلة اغتصابا ، وينقدها بديلا عنها ،اصفر رنان جزاء وفاقا

تلك حالة كثيرات منا ، وتلك حالتي منذ أيام قليلة ، وذلك درس مؤلم وذكرى سيئة تقلب أمامي صحف الماضي السوداء

خرجت لأسرى بعض همي فلذلك انتحيت مكاناً قصيا ، وجلست على بساط العشب الاخضر وأخذت أفكر في ماضي ومستقبلي. واذا بعد قليل : أسمع صراخا

جهدى فى مرضاتك وتهيئة السعادة لنسلنا ان قـدر الله لنا نسلا . هذا ان تحققت الاحلام وصدقت الامال . سبب حياة الانسان

وليست حيـاة المرء الا أمانيا فان هي ضاعت فالحياة على الأثر

ودمت لحبيبتك .؟

(خالدة)

وبعد أن ذلل الارض وتغلب على البحر تحول للهواء فخلل طبقاته ثم صنع الطيارات والسفن الهوائية والمنطادات فشارك بذلك الطير فى عشه ، بعد أن شارك السمك فى محيطه ، والحيوان فى حرجه . وهكذا علم الانسان ما لم يعلم واكتشف نائى الاصقاع ، لكنه عجز عن اكتشاف ما يأتى به الغد ، عجز عن قرع هذا الباب لان أمره بيد الله ، والله لا يطلع على علمه أحدا

ذلك هو الغد الذى أخافه يا طفلى فأخاف أن يفجعنى فى آمالى الكبيرة وانما أعلل نفسى بالامال

لم أسر قدر سرورك ، ولم أبتهج ابتهاجك ، بل استبشرت لكن بشرى الحزينة التى تومض فى حياتها المملوءة بالاشجان والاحزان ومضة أمل لا يلبث أن يعقبه ظلام يأس

* * *

لا تتفاءل كثيرا بل تطير فان أتى الخير فنعما به وان أتى الشر فقد أعددنا له عدته

كنت نظيرتك كثيرة التفاؤل ، فلما هجمت علىّ الاحزان بخيلها ورجلها غدوت حزينة فلما سررت وندر ما ابتهجت ، ولقد اعتدت الحزن حتى سميت بالغضوبة وهو اسم طابق سميته

علىّ أن أشكر والدك لتفضله بذلك الخطاب الذى أحيا ميت الأمل فى نفسى ، لكن تجدنى أعجز أن أظهر له عظيم شكرى وكبير امتنانى — طبعا بتحفظ — فاشكره على قدر ما تستطيع ويزيد ، نقب عن كل كلمة تعبر عن الشكر فى قاموس لغتنا الشريفة واشكره بها . فان فعلت لم تقم الا ببعض الواجب فالاولى أن تظهر عجزك عن ايفائه حقه من الشكر ، واظهار العجز فى هذا الصدد اعتراف صريح بقدر الجميل وعظمته

حدثه انى سأكون عند ظنه بي . سأكون لك زوجة بارة مخلصة . سأبذل

قـد يكون ملاكا طاهراً كريما ، يسبغ علينا السعادة ، ويهبنا حياة طيبة لذيذة يتخللها سرور وانشراح فى كنف أطفال بررة كرام يسببون لنا بهجـة وفرحا .

قد يكون الغد سحابة قاتمة ممطرة محملة بالخير ، ولـكن لا يلبث أن يهب عليها ريح بارد فيحلل أجزائها ويسقط مائها فتصبح هى والعدم سواء

قد يكون الغد ريح صرصر عاتية تهلك الزرع والضرع وتهدم القصور والصروح

الغد شبح مجهول لا يعرفه أحد مهما عظم قدره ولا يقـدر مخلوق أن يكشف حقيقته

ينظر الغد لامالنا وآمانينا ، نظرة الساخر ويبتسم ابتسامة المزدرى

لقد ذلل الانسان كل صعب ، ومهد كل عسير ، فاكتشف نائى الاصقاع وتوغل فى الغابات الكثيفـة المخيفة فاصطاد آسادها وقوض عرشها ثم بطش بنمورها الفاتكة وسلبها ثمين فرائها

ثم زرع الارض فأخرج منها الحب أشكالا ، ومن النبات أنواعاً ، ومن الفواكه أجناسا ، ومن الزهر خليطا من ألوان وأجناس

ثم نقب فى باطن الارض فاستخرج فحمها وحديدها اللذين استعملهما فى مختلف الصناعات ومتباين الاغراض ، ثم اكتشف ابريزها فصك منـه نقوداً واستعمله حليا ، ثم عثر على ماسها وياقوتهـا وزمردها واستعمله فى مختلف أغراضه وأخيرا ربط بحديدها ونحاسها مختلف البلدان وبعيد الاقطار ، فهيأ سبل الراحة وقرب نائى الامصار .

ثم تحول للبحر فصنع من خشب الغاب قوارب صغيرة تسير فيه « باسم الله مرسيها ومجريها » وما لبثت هذه القوارب قليلا حتى صارت سفنا تجارية كبيرة تغلبت على أمواج البحر المرغيـة المزبدة واكتشفت مجهول أصقاعه ، ومتجمد شواطئه ، ثم غاص فى البحر فاستخرج لالئه الثمينة ، وكنوزه القيمة

سقوطى ، وسبب تعاستى

يحق لى أنا التى لم أر يوماً فى حياتى يسرنى ، ان أصم الرجل كذلك لأن الرجل سبب كل الشقاء الذى أتحمله

كان والدى رحمه الله بادىء هـذا الشقاء ، لأنى بعـد ان كبرت ، شرع يهيىء سبيل سعادتى ، فهيأ بدله نار عذابى ، ظنا منه أن ذلك هو عين السعادة بل هو الغبطة ، وهو السرور ، ظنا منه أنه ان نفذ رأيه حق علىّ شكره للابد ولكن سهمه طاش ، وأمنيته خابت ، وآماله ضاعت ، لانه أساء الاختيار بدل أن يحسنه وزوجنى برجل أقل ما يوصف به أنه لا يحسب للمال حساباً

كان زوجى رحمه الله متمم هذا العذاب ، لأن سذاجته وطيبته سببت فقرنا وموته وتضحية نفسى . فصفاته السالفة لا توافق هذا العالم المملوء بالشرور ، العالم الذى سداه ولحمته الخداع ، والغش ، والنفاق

وما هى الا عشية أو ضحاها ، حتى غدونا مفلسين وغدا زوجى لا حياً يرجى ، ولا ميتا ينعى ، بعد ان وقعت الفاجعة وبعد ان خـدش الشرف ، وأهينت الـكرامة ، فالرجل اذاً سبب زلتى

احترفت مهنتى الجديدة وكان المعضد لى على احترافها الرجل ، والمقابل لى بصدر رحب الرجل والواضع حدا لهذا العيش المنكود الرجل

فلله ما أغرب تصاريف الاقدار ، يكون الرجل سبب حياتى ثم يغـدو سبب شقائى ، ثم يمسي سبب سعادتى

* * *

تتفاءل بالغد ياحبيبي وتسر له وتبتهج ، والغد شبح مظلم ماثلا أمامى لا أتبين منه ذلك الامل السرى والسعادة السرمدية (١)

أتدرى ما يأتى به الغد

(١) على نسق الغد للسيد مصطفى لطفى المنفلوطى

٢٣

شبح الغد

رددت على بشرى طفلى بالكلمات التالية

الجزيرة فى ١٨ سبتمبر .....

طفلى المحبوب

زففت لى بشرى عظيمة ، وحمل الى كتابك نبأ مبهجاً ، مزيلا للهم ، مضيعاً للأشجان . عفوا . بل حمل لى البريد نبأين ، أو لهما عدول والدنا البار عن رأيه في زواج شقيقتك ، الصديقة الكريمة . أما الثانى فموافقته على زواجنا ، وتعليق هذا الزواج بعد زواج الصديقة التى لها الفضل الاكبر فى اتمام هذه المهنة . فان كلفتك باسدائها خالص الشكر وجزيل الحمد . لما قامت به من عمل جليل ، أكون قد كلفت الجدير بالتعبير عما أشعر ، ووثقت حسن تعبيره ، لأنه يشعر شعورى ، ويشاركني هنائى

ولو لم أكن من المطايرات المتشائمات من المتفائلات بالشر قبل الخير ، لا متلائت نشوة ، وابتهجت فرحا لأن نبأ عظيم كهذا ، نبأ يضع حدالمعيشتى التى تجرعنى كؤوس البؤس والشقاء ، نبأ ان لم يقض عليها فى الحال ، فسيقض عليها بعـد حين ، نبأ ينشلنى من حيات دفعت اليها حقـدا ، دفعت اليها ظلماً وعدوانا ، يبتهج ويفرح

حقدت على بن آدم ، واتهمته بأفظع التهم ، ووصمته بأشنع الوصمات ، وخصصت من ابن آدم معشر ، الرجال سبب محنتى ، سبب بؤسى ، سبب

لا زلت أيها الوالد الكريم خير عضد ونصير
وفي انتظار رأيك الاخير
وتنازل بقبو عظيم احترام ابنتك التائبة ؟

ابنتك
خالدة

ملاحظة : لن أطلع عزيزي (طفلي) على كتابك

* * *

— حسنا يا والدي وما هو قرارك الاخير
— قررت يا بني ان أبارك حبكما واليك كتابي الذي اعلنها فيه برضائي
قرأت في الكتاب ما يلي :
الخادمية في ١٤ سبتمبر ....
ابنتي
سررت لقبولك شروطي ، وذلك ما كنت انتظره منك ، ولذا فأني ابارك حبكما ، وأوافق على زواجكما وأدعو لكما بدوام الهناء ، وأطلب من الله ان يمد في اجلي حتى أراكما زوجين
وختاما اهديك تحياتي الابوية ؟

والدك
أحمد

هذه ياحبيبتي هي البشرى التي أزفها لك بقلب مبتهج ، وفؤاد ، ونفس راضية قانعة
وآمل ان تشعري شعوري وتبتهجي ابتهاجي ، ولولا مرض خفيف طرأ على والدي لحملت أنا لك البشرى
ودمت لحبيبك ؟

حبيبك
حكمت

فان قبلت شروطى ، أعدك انى اقبلك زوجا لابني ، وان كان لك شروطا فاشترطيها .

والدك

وتقبلى تحياتى ؟

احمد

ملاحظة : أرجوك الا تطلعى ابنى عن المراسلة التى جرت بيننا ؟

* * *

ولما انتهيت من تلاوة الكتاب قلت له :

— شروطك شديدة يا ابنى وأخشى أن ترفضها

— لا يا بنى لقد قبلتها مبتهجة وهاك خطابها .

فقرأت فى خطابك ما يلى .—

الجزيرة فى ٣١ يوليه . . . . . —

سيدى الوالد المحترم

أتسمح لامرأة فقدت كل نصير لها فى الحياة ، ان تناديك بالاسم الذى كانت تنادى به والدها

لا غرو ، فلقد تفضلت فأظهرت نحوى عطف الاب البار ، الذى يحب ابنته شديد الحب

عطفت على ورثيت لحالى ، فشاركتنى مصابى ، ولم تقف عند هذا الحد فحسب بل تماديت فاظهرت كرما وحلما عند ما سمحت لى أن اتحادى فى حب وحيدك . حبيبى العزيز

أما شروطك فأنا لها قابلة ومنفذة . وسكنى الريف احب الى من عيشة الحضر . مادامت ابنتى أرعاها بعنايتى

أما قطع علاقاتى مع من تظاهر بحبهم . وأنا فى الحقيقة لهم كارهة . فذلك ما أنشده من زمن فان نلته فى المستقبل . عددت نفسى سعيدة

وفى الختام أعجز أن أقدر شكرى وعظيم امتنانى لم تسديه لى

والد أن يهمله مراعاة لسمعة أسرتنا التي لم يخدش شرفها حتى الان

لم استطع بعد هذه التقدمة أن أقول شيئا . بل قرأت الخطاب :

ابنتى .

يهديك أب عجوز سلامه ويرفع لك تحياته وبعد .

أطلعتنى ابنتى على خطاب ابنى لك ، ثم ردك عليه . وقبل ذلك حدثتني عن أسرتك وكنت لخالك الكريم صديق صميم وبتاريخ نكبتك عليم ، ولكني كنت جاهلا ما آل اليك امرك ، بعد ما اتخذه معك الطبيب من النذالة ، والمتاجرة بالظرف الدقيق الذى كنت فيه ، لقد أغواك لينال أمنيته الدنيئة ، وبعد أن فاز بمطلبه حملك على خوض لجة العهر ، فمهد لك السبيل ، وساعدك على اجتيازه .

وحدثنى الثقاة الذين أثق بحديثهم ، كيف التزمت جادة الصواب فسلكت بحكمة فى حرفتك الجديدة ، فدل ذلك على نبل أصلك ، وشرف سجاياك ، لما أرجأت زواجك بعد زواج ابنتى

لا أستطيع البت فى هذا الزواج ، الا بعد أن أسألك بعض أسئلة ، وأطلب منك بعض مطالب فان أجبتيها ، قد أستطيع ان ابدى رأى فى هذا الزواج واعتقد اننا سنتفق -- ان شاء الله ـ

أما طلباتى فاليك نصها ولتعلمى انى راعيت فيها مستقبل ذريتك ثم مستقبل ابنتك

١ — لا يتم زواجك الا بعد زواج ابنتى بسنة ، تمضين هذه السنة معتزلة كل الناس

٢ — تقطعين علاقاتك مع من نعرفيهم من الرجال

٣ — ولأتحقق من تنفيذ الشرطيين السالفين تسكنين الريف لتبعدى عن فساد المدن

٤ — تتربى ابنتك فى احضانك

أنه كهل فهو ذا زوجة واولاد وما سمع والدى حقيقة امره حتى رفض طلبه باباء وشمم ، ولذلك مهدت نصف طريق زواج شقيقتي . ثم اخذت احـدثه عن المهندس الذى حادثتك شقيقتى انها به مغرمة فوجدت منه اصغاء لحديثي واهتماما بشأن الزوج الجديد

ثم والدى من المحافظين فى بعض آرائه الا انه يتمشى مع الاحرار فى الآراءالتى تستطاع البرهنة له على صحتها وفساد ما يعتقد ، وتلك على ما اعتقد خلة حميدة

وكان عملي السالف مغريا لشقيقتى ان تسعي بجد فى تمهيد سبيل زواجنا ولذلك بدأت باطلاع والدي شيئا فشيئا على المهمة التي نتعاون كلينا فى العمل لها

تمكنت شقيقتى بفضل نفوذها العظيم . ومركزها الكبير عند والدى أن تنال رضائه مبدئيا . وانتظار اعلان قبوله بعد البحث والتحرى

ابتدأت شقيقتى بقص مأساتك عليه ومن الغريب انه كان بها عالم ، وبخالك الكريم صديق حميم

ثم استدرجت معه فى الحديث حتى اخبرته بحبي لك فأرغى وازبد — كما هي العادة أولا — ولكن لما حدثته بما تعلمه من سجاياك واطلعته على صورة خطابى وردك عليه ، حللت فى قلبه مكانا كبيرا ، فشكر لك صنعك ووعد أشقيقتي بالسعى فى هذا الامر وسيبدأ عمله بالكتابة اليك ليستعلم منك عن أمور يريد التحقق منها واظنه طلب كتمان المراسلة التى تدور بينكما لامر أجهله ويظهر انك قبلت طلبه وذات يوم قال لى بحضور شقيقتى

اسمع يابنى . لقد حدثتنى . أختك عن سرك الذى تخفيه عني . ولقد استطعت من الابحاث العدة التى بحثتها سواء بمعاونة شقيقتك أو بالكتابة للسيدة التي تحبها ، أن اقف علي ما أردت الوقوف عليه ولذلك أحب أن أطلعك على كل ما عملته من غير علمك . فاليك أولا الكتاب الذى أرسلته لها قد تقول ان هذا الكتاب شديدا ولكن أعلم أن ما عملته واجب على كل

٢٢

البشرى

الحمد لله لقد تلقيت اليوم خطابا من طفلى ينبئنى ان مسألة زواج شقيقته قد انتهت وانه وانه قد تم الاتفاق برضاء والده (الذى كاتبنى مرة يستفهم فيها عن بعض امور لابد منها) على مسألة زواجى واليك خطابه

الخادمية فى ١٥ ١٥ سبتمبر ....

حبيبتى

اليوم اهم بالكتابة اليك حاملا بشرى موافقة والدى على زواجنا منذ ان كتبت فى خطابك الاول وقلت :

(ترو فى امرك وتدبر ولا تعص اولياءك ولا تتشدد معهم بل كالمهم بالتى هي احسن ، وليكن شعارك حسن السياسة) ثم قلت فى موضع آخر :

« ولتعلم ان رضاء والدك عن زواجي بك شرك اساسى »

اتخذت ذلك لى شعارا لى فى اعمالى ، ولذلك شرعت فى تنفيذها بكل الوسائل الممكنة وبالطرق السلمية المشروعة ، فاخذت امهد طريق رضاء والدي فابتدأت باحتراف المحاماة والتشمير عن ساعد الجد فى هذه المهنة ، وكانت شقيقتي اثناء ذلك تساعدنى على مهمتى الشاقة من ناحيتها لاساعدها انا الآخر على رفض الزوج الكهل الذى تأباه وتخشى ان يسبب لها التعاسة

استطعت بفضل نفوذى ومعاونة الاصدقاء المخلصين ، البرهنة لوالدى الكريم ، ان من اختاره زوجا لابنته قد انخدع فى اختياره ، لانه فضلا عن

ـ نعم لدى وصيفتى

ـ أظن الوصيفة لا تستطيع القيام بهذا العمل وحدها. فهل يتكرم السيد بقبول ملاحظتها قليل من الساعات

ـ بكل سرور أقبلها

ـ شكرا لكنها منه كبرى تسديها الى

ـ هذا قليل من الواجب علىّ

اعترض الطبيب الحديث وقال :

ـ تفضل بملاحظتها ساعتين ، فان لم يعاودها الاغماء فلا يعاودها بعد وان زادت الملاحظة لثلاث ساعات كان أوقع . ذلك واجبك ايها السيد ، اما السيدة المريضة فعليها ان تطرد الافكار التى سببت نوبتها فان تكرم حضرة الزائر بتخفيف وتبديد هذه الافكار لوقت قصير ـ على الاقل ـ فقد أتم جميله

وبعد ذلك خرج الطبيب مشيعا بالتجلة والاحترام

فتح الطبيب الباب لتدخل زائرى فى اسباب زعلى وحزني، وما علم السبب جتى قدم لى المبلغ كله كقرض ، ولكنى حتى اللحظة لم اف له هذا القرض لانه أبى ذلك ، وطبعا تبع ذلك تردده على ولكني اعلمت طفلى بمسألته ، فلم ير بأسا فى تردده ما دام هو غائبا على شريطة ألا يكثر هذا التردد

وسرت على رأيه فلم أسبب غضبه

— انى أرى أن سبب هذه النوبة شدة زعلك أليس كذلك ؟

ـ نعم يا سيدي الطبيب وسأجتهد ان أمنع الزعل ولا يفوتني ان أشكرك على الايادى البيضاء التى أسديتها لي

ولكن أتسمح لى يا سيدى الطبيب ان اسألك من ذا الذى مد لى هذه اليد الكريمة ، فتفضل بدعوتك ؟

— من دعانى ؟

ـ أجل من دعاك ؟

ـ دعانى السيد الكريم الواقف جوارى أتجهلينه ؟

ـ ان جهلت شخصه فاعماله تنم عليه وانى أشكر الظروف التى سمحت لى التشرف بمعرفة سيد كريم ذا مروءة وشمم

وهنا تكلم سعادة البك بعد أن ظل طول هذا الوقت ساكناً ، ويظهر انه كان يرتب الحديث الذى سيلقيه على مسامعى :

لى الشرف العظيم ان أقدم نفسى للسيدة نوريس ... فأنا .... عطيه .... بك جارك الموظف فى .... ولقد هيأ لى سبيل خدمتك خادمك لانه عقب اغمائك بحث عن طبيبك ولما أعياه البحث سأل بوابى ان يسألنى عن محل طبيب لأن سيدته مغمى عليهـا . وما سمعت الخبر حتي هرعت وأحضرت السيد النطاسى

مددت له يدى ليقبلها علامة لشكري لصنيعة وقلت :

ـ شكرا يا سيدى البك

ـ عفوا يا سيدتى : فأنا لم أقم الا ببعض الواجب

ـ سجاياك كريمة تستحق مزيد الشكر عليها

وهنا اعترض الطبيب فقال :

ـ الآن وقد استجمعت السيدة بعض قواها فانى استأذن الا انى أوصى من بالمنزل بملازمتك . ألديك أحد يلازمك ؟

اسمعى يا « أفكار » سأدبر اليوم مكيدة لفتنة جارى فان نجحت ضمنت بقية الوثيقة التى تستحق الدفع بعد سبعه أيام ان لم تكن القيمة الاسمية للوثيقة نفسها وستكونين في هذه المكيدة ساعدى الايمن ونجاحها متوقف عليك

انتظرى اليوم حضور البك جارى وبعد حضوره بنصف ساعة جرعيني جرعة من الدواء الذى كتبه لى سيدى الطبيب الكريم فهذا الدواء يغيبنى عن الرشد . وبعد ما يغمى على تصرخين فيحضر البواب وتسأليه أن يتظاهر بالبحث عن طبيب مجاور لانه لم يجد طبيبا وسيدته مغمى عليها من زمن طويل

فى ذلك الوقت يبحث السيد الجار عن الطبيب ويكون ذلك واسطة لدخوله صرحى .

ذلك دورك فى هذه المكيدة وعلى اتمامها ولتكافى الطاهية أن تعد لنا عشاء فاخرا لذيذا أفهمت .

— فهمت يا سيدتي وسأنفذ اوامرك بكل دقة .

— شكرا ! كلل الله مسعانا بالنجاح

*
* *

لعبت « أفكار » دورها بدقة لأنى شعرت أن الطبيب يحقننى ، ففتحت عينى وقلت بلهفة المذعورة الخائفة ،

ماذا أرى ..... رجلين كريمين ..... !

أرى طبيباً يحاول ايقاظى وسيدا كريما جواره ، ما هذا أفى حلم أنا أم فى يقظة ؟ وما هذه الالغاز التى لا أفهمها ؟

— خففى عنك يا سيدتى فقد مضى الآن علينا اكثر من نصف ساعة نحاول أن نوقظك والآن وقد تكللت محاولتنا بالظفر فهل تخلدى للسكون لا سيما وأعصابك لا تزال متأثرة

بكرم حاتمى لأنها خفيفة الروح ، وقد لاحظت انه يحبها وهى لا تحبه بل تتظاهر دائما بحبه فتتقن تمثيل دورها وسيدي يجهل ذلك لانه سليم الطوية وهى خبيثة ماكرة

ـ علمت ان له زوجة فأين هى .

ـ زوجته فى دمياط عند والدها وهى جميلة الا ان سيدى لا يحبها

ـ أيزورها .

ـ أحيانا

ـ ومتى يزورها .

ـ كل أسبوعين مرة

ـ أيصرف عليها كثيرا .

ـ أظنها لا تكلفه شيئا لانها غنية

ـ أيعود دائما متأخرا

ـ لا بل احيانا يعود مبكرا ؛ وأخرى لا يخرج من القصر بعد رجوعه من محل عمله

ـ أتظن انه يحضر الليلة مبكرا

ـ أوكد انه يحضر ويغلب على ظنى انه لا يخرج بعد الغذاء .

ـ أهكذا كل ما تعرفه عنه .

ـ نعم

ـ شكرا لك وهاك جنيها سادسا جزاء أمانتك فى نقل الحديث

ـ لا زلت عونا للفقراء يا سيدتى

يكفى ذلك الآن وقد انتهت مأموريتك أتتصرف بسلام

ـ أمر سيدتى مطاع

*
* *

بعد انصراف البواب الثرثار حضرت وصيفتي فقلت لها :

ذلك وما أطلبه منك هو ان تجاوبنى على الاسئلة التي سأطرحها عليك فاذا صدقتني الحديث أعطيتك ثلاث جنيهات مكافأة لك وللخادم التى تشاركك فى الخدمة اثنين أموافق .

ـ نعم يا سيدتي وحقاً أنك سيدة كريمة وكم أود من صميم فؤادى وتشاركنى أمينة شريكتى فى الخدمة ان يرعوى سيدى ويثوب لرشده ويقلع عن سيء عاداته .

أصدقك الحديث يا سيدتى ان سيدى البك معجب بحضرتك جدا الا أن بعض الخليعات يشغلنه عن التفكير فيك ولكن هذا لم يمنع تصريحه لنا مرارا انه يود ان يتعرف بحضرتك .

ـ كفاك ثرثرة ولتسمع ما أطرحه عليك من الاسئلة

قلت له هذه الجملة وأنا متظاهره بالغضب لكنى فى الواقع كنت مبتهجة مسرورة لانه كفاني مشقة سؤال مخجل

أيقتصد سيدك شيئاً من مرتبه .

ـ لا بل لا يكفيه

ـ أله موارد أخرى خلاف مرتبه

ـ نعم لديه ريع ثلاثين فدانا ومائة وعشرين جنيها سنوياً . بدلا عن وصايته على أخته

ـ أتعرف انه يقتصد . بالرغم من انه يصرف اكثر من مرتبه .

ـ نعم لأنه بالرغم من أنه يقضي أغلب لياليه ساهرا فمتوسط مصروفه الشهرى ستون جنيها من دخله الذى يقدر بتسعين جنيها وعلى ذلك فمتوسط ما يقتصده شهريا ثلاثون جنيها وقد بلغ ما اقتصده من دخله ستة آلاف من الجنيهات وهو يود ان يشترى بهذا المال أطيانا الا ان الله هيأ له سيدة جميلة متلافة فأصبح دخله لا يكفيه فشرع يسحب من المال الذى ادخره وقد علمت انه كلفها فى مدة شهرين اكثر من تسعمائة جنيها . وهو يصرف عليها

ـ وكيف عرفت انه لا يعود .

ـ يس يخبرني ذلك

ـ واليود الذى لا يعود فيه متى يرجع المنزل ،

ـ يرجع ظهرا فى ميعاده العادى

ـ أتلاحظ ان سيدات تخرج معه فى الصباح .

ـ لاحظت ذلك ثلاث مرات

ـ أمصريات هن .

ـ لا بل أفرنجيات جميلات

ـ ألا تعرف شيئا آخر .

ـ كلا يا سيدتى

ـ أتظن أن يس البواب يعرف اكثر

ـ نعم لكنه يحب المال حباً جماً

ـ اذن ابعثه الى وفهمه انى سأعطيه ما يرغب من المال وهاك منى جنيها جزاء قيامك بهذه المهمة .

ـ شكرا يا سيدتى ومطلبك سألبيه

لم تمض ربع ساعة حتى أنبأتنى وصيفتى أن يس البواب قد حضر فأمرتها أن تدخله فدخل ولاحظته يقلب نظره فى محتويات غرفتى ليعرف هل غنية أنا أم فقيرة؟ فتركته يفعل ما يريد وأبيت أن أبدأ معه الحديث وبعد أن أتم عمله قال:

ماذا تطلب سيدتى ؟

ـ أأنت بواب . . . . . . عطية . . . . . يك .

نعم يا سيدتى

ـ عرفت شيئا عن سيدك ، عرفت انه يقضى أغلب ليلته فى السهر . عرفت انه بعيد عن زوجته . عرفت انه يصرف مرتبه على صويحباته . عرفت كل

ـ وكيف حال معيشته ؟

ـ هو فى رغد من العيش مبسوط جداً

ـ أتقصد بمبسوط أنه غنى ؟

ـ أظن أن عنده كثير من المال

ـ إذن هو غنى

— لا يا سيدتى لانه لا خدم كثيرون عنده ولا سيارة ولا عربة

— اذن تعد من يملك سيارة وعربة ومن يستخدم كثيراً من الخدم غنياً.

— وكيف أعد الغنى يا سيدتى .

— أتعرف أنه موظف .

— نعم فى ..... لأن يس قال لى مرة انه ذاهب ..... عند البك سيده

ـ اهو متزوج .

ـ نعم ولكن زوجته عند والدها فى دمياط

ـ أهو من دمياط :

ـ لا هو من المنصورة

ـ أتلاحظ أنه يقضى بعض لياليه خارج منزله .

ـ نعم كثيرا ما لاحظت ذلك

ـ وكم يوماً يغيب عادة .

ـ أحياناً أسبوعا وأخرى يومين متتابعين وغالباً يومي الخميس والجمعة

ـ أتعرف مواعيد خروجه .

ـ يخرج فى الصباح فلا يعود الا عند منتصف الساعة الثانية ثم يخرج حوالى العاشرة ولا أعرف متى يعود .

ـ أيعود متأخر .

ـ متأخرا جدا وأحيانا لا يعود

ـ هن خليلاته

ـ أتستطيعين أن تصفيهن لى ؟

ـ لا أستطيع تماماً ولكنى أقول ان احداهن سيدة بدينة والاخرى معتدلة القوام

ـ أواثقة أنهن خليلاته ؟

ـ جد الوثوق لانهن يصحبنه فى ساعة متأخرة من الليل ويخرجن معه فى الساعة الثامنة

ـ ولم يبكر فى الخروج ؟

ـ لانى على ما أظنه موظفاً لانى لاحظت أنه يعود حوالى الثانية مساء ولا يخرج من المنزل الا العاشرة ولاحظت أن غرفة نومه لا تضاء الا التاسعة ولذا أرجح أنه يقضى كل وقته فى النوم ليستطيع احتمال السهر الطويل .

ـ هل هذه ملاحظاتك كلها عن سعادة البك

ـ أجل ياسيدتى فان شئت معلومات أكثر فحسن عليم بها لانه يستطيع أن يخبرك عن حقيقة أمره لانى لاحظت ـ ومعذرة أن فاتنى أن أذكر هذه هذه الملاحظة ـ انه أثناء محادثة حسن للبواب يس تحضر فتاة فى الثامنة من عمرها وأظنها خادم غرفة البك وتتكلم معهم ويغلب على ظنى أنها تحدثهم حديث اليوم .

ـ اذن أستدعيه الى فى الحال

كما تأمر سيدتى

لم يمض خمس دقائق حتى كان حسن البواب ماثلا بين يدي فقلت له :

ـ أتعرف جارنا البك ؟

ـ . . . عطيه . . . بك أعرفه حق المعرفة

ـ منذ كم اشترى القصر ؟

ـ منذ أربعة أشهر ونصف

٢١

الفتنة

استدعيت وصيفتى الأمينة الحافظة اسرى وقلت لها :

ـ أتعرفين شيئاً عن أحوال جارنا ؟

ـ كلا يا سيدتي لا أعرف الا القليل ولكنى أظن أن حسن البواب يعرف الكثير من ذلك

ـ وكيف عرفت أنه يعرف شيئاً كثيراً عنه ؟

ـ لأنى أشاهده يحادث بواب منزل البك جارنا

ـ أجارنا (بك) أم أنت مانحة له اللقب كالعادة المتبعة ؟

ـ انه بك لانى سمعتهم مراراً يدعونه كذلك

ـ أتلاحظين شيئاً على البك ؟

ـ ألاحظ أن لا ربة للقصر بل فيه زوج من الخدم من النساء وطاه والبواب

ـ وكيف عرفت أن لا ربة في القصر ؟

ـ لاحظت كثيراً أن غرفة البك لا تنار عدة ليال وفي هذه الليالى أجد النور في الطابق السفلى حيث تسكن الخدم .

ـ وكيف لاحظت هذه الملاحظات الدقيقة ؟

ـ اعتدت أن أنتظر عودة سيدتي من سهراتها في النافذة فكنت أرى البك جارنا وهو أيضاً راجع من سهرته وكثيراً ما استصحب معه سيدة أو اثنين

ـ تقولين أن لا ربة بالقصر ، ومن هن النساء اللائى يستصحبهن

ومستودع مخازى أمور الاسر . فان أردت استطلاع حاله أسرة أعجزك اكتشاف حقيقتها ، عليك بالخدم نساهم ورجالهم

ان المعاشرة تحت سقف واحد تولد العطف بين جنسى هذه الطبقة الدنيا فالنساء من خدم القصر تحب نظرائهن من الرجال فيفشين له ما يسمعنه ويلتقطنه من الاحاديث والاسرار الجسيمة ، فيسمع لها الرجل بكليته ويحفظ حديثها ويكون غالبا معوانا ومساعداً لهن على التمادى فى هذه الخصلة الدنيئة .

تغلط السيدات ويهفو الرجال أمام الخدم غلطات قبيحة ، ومن الغريب أنه دائما بحلولهم معاتبة بعضهم البعض وسرد زلاتهم أمامهم وبعدئذ يحاول كل جهده أن يبرىء ساحة نفسه ، فيكون ذلك درساً جليلا للخادم

ولا يمضى الا قليل من الوقت حتى يخشى الاسياد الخدم فيبذلوا جهدهم ليستبقوهم عندهم ، فيفطن الخادم ويبغى ، ويتمرد ويتملك ، ويصبح السيد الآمر صاحب الكلمة العليا ، صاحب السلطان المطلق ، فيحل الخادم محل رب القصر ، والخادم محل ربته ، وذلك كله بفضل غلطات الأسياد المكرمين.

فكم من خادم فشى سر سيده وسيدته ، فجر عليهما المصائب والكوارث ذلك السلاح الدنىء سأستعمله فى فتنة جارى

جارى ، صاحب القصر المجاور لصرحى منذ بضع شهور الذى يظهر انه سرى كبير ذو مال كثير فان استطعت أن أنال من ماله حوالى أربعمائة جنيهاً أكون وفقت فى عملى

بالله انه لمبلغ جسيم سأجهد نفسى اجهاداً عظيما حتى أحصل عليه فى الوقت المحدد وسوف يؤنبنى ضميرى طويلا ولكن هذا مالا بد منه وهو وهو الطريق الوحيد والا فهناك فتهكم الدائنين وسخريتهم وهزؤهم وانذارهم ووعيدهم وفى ذلك الوقت يتداخل جارى ويدفع دينى فاغدو أسيرة له . فلم لا أصيره اسيرالى ؟ لم لا أضطره أن يرتمى تحت قدمي ويطلب منى أن أحبه ،

النتيجة واحدة سأكون لهمختارةأو مضطرة ، فان أصبحت خليلته مختارة ملكت قلبه ، وتسيطرت على فؤاده ، وأصبح منفذا لارادتى ، مطيعاً لامرى ملبياً لطلبى ، وان غدوت عشيقته بالرغم منى تنعكس الآية فأذعن لطلباته ، وأطيع أوامره ، وأنفذ مطالبه .

لا أستطيع ان اتحمل الذل وأكون مسيرة فى يد الغير لانى تعودت ان أكون مسيرة للغير ، فزوجى كان يطيع امرى ، وعشاقى يلبون مطالبى ، ولا اراجع فيما أقول .

تعودت أن أكون آمرة مسيطرة فهل أصبح مأمورة مسيطر عليها ، هذا ما لا أستطيع تحمله

على أن امهد طريق فتنة هذا الرجل ومساعدى فى طريقى خدام صرحى وخدام قصره وسيكون المال وسيلة لافشاء سر سيدهم

المال يدفع الرجل المهذب الى خيانة من ائتمنه فهلا يدفع العاميين بسطاء العقول ، ضعاف النفوس الى خيانة اسيادهم ، انهم بلا ريب ازاء قليل منه ازاء جنيها أو اثنين ، ازاء وعد جميله ، إزاء ضمان معيشة رغدة يبيحون كل ما يعرفون من دخائل أمر سيدهم .

اعتادت خدم القصور وبيوتات الاشراف أن تكون خزانة أسرار ،

كل يقبحه ، لكنهم متفننون فيه حتى أصبح مبدأ ثابتاً لهم وصار عادة لا تستأصل ، وبمرور الزمن أصبح المستهزىء له مستحسناو مستطرفاً وهكذا عبثت يد الانسان بكل شريف مقدس دون تردد

أصبحت الصناعات الشريفة لا يحترفها أصحابها الا للمال ، فالطبيب لا يحترف مهنة الطب الا لجمع المال ، ولا يحفل الا بما يتقاضاه من المرضى لاشباع مطامعه ، والمعلم يستدر المال من طلبته ولا يوفيهم حقهم من العلم والتربية والتهذيب ، والصحافى والكاتب يؤجر قلمه رغبة فى الدرهم

بلى من العدل والصواب أن يكون لكل عمل أجر ولكل تعب جزاء ، الا أنه من الخطأ البين أن يكون الربح هو الباعث على الغاية سواء كان المجهود جثمانياً أوعقلياً

ان مثل من يحب المال حباً جما ، كمثل من يعطش فيشرب الماء الاجاج بقصد الارتواء فلا يمنع شعوره بالعطش بل يضاعفه ، ومحبو المال يزيدون ولعهم به باضافة الحسد لهذا الحب

« يا لله من فظاعة ما يحدث ان الطفل منذ الطفولة يحنى ركبتيه اجلالا للعجل الذهبي والمعلمون يتظاهرون باحترام الطالب السرى ، الفقراء يقتدون بعلميهم فينهجون نهجهم ، والصحف لا تكف عن الافاضة بمديح الاغنياء ، والناس يتركون لهم الاماكن الممتازة حتى فى دور الصلاة والعبادة ، والنساء أدنى الى الانخداع بمظاهر الغني من الرجال ، والكل ترى المال حائلا بين حقيقة الانسان — وان سفل بحصالة — وبين مظاهره الداعية الى الاجلال (١) ».

* * *

فكرت فوجدت أن أحسن طريقة أنال بها المال الذى أطلبه هوان افتن

---

(١) مقتبس من كتاب روح الاعتدال للكاتب الاجتماعي حافظ افندى نجيب

٢٠

العصر المادى

اليوم العشرين من شهر اكتوبر فلم يتبق على استحقاق خمسمائة من الجنيهات الاسبعة أيام ولا يوجد فى خزانتى منها الا ثلاثون ومائة وطفلى غائب فى ضيعته ، ولا أود ان أطلب منه مبلغاً جسيما كهذا لانى أخذت على عاتقى الا أحمله ماليا

أصبح المال كل شىء فى هذا العصر ، وأصبح له قوة ونفوذو غـدا له سلطان مطلق فاضحى الطمع والانانية خطرا على المجمع الانسانى

المال أساس هـذه الحياة وروحها ، هو مفتاح الامل لمن يطمع فى نيل غرض ، وحلال المسائل لمن يعجز عن حلها ، له السلطان المطلق على القلوب والتغلب على النفوس لانه أقطع برهان وانطق لسان ، هو سبب المصائب ، هو طريق الشقاء وهو علة خراب الأمم ، هو ناشر الفساد ، هو مسبب الخداع ، هو مولد الغش ، هو مبيح المحذور ، هو مبدل حقائق الاحوال ، هو القوة الهائلة التى تستخدم للشر كما تسخر للخير ولقضاء الحاجيات

استولى حب المال على الافئدة ، وتملك القلوب ، فسعى له ابن آدم من كل طريق خيره وشره ، فتاجر بالعرض ، وقامر بالوطنية ، ورمى الدين وراءه ظهريا ونبذالعاطفة جانبا

يشمئز الانسان من هذا النوع من الاتجار ولا يوجد من يستحسنه بل

ـ شكراً يا أميرى العزيز

ـ اذن تفضلى بقبول هذا الخاتم كتذكار لصداقتى ، طالع هـذا الخاتم ميمون فـكل من لبسه لازمه حسن الطالع فليكن هدية منى لابنتك الصغيرة

— والآن أتأذنيين لى بالذهاب

— الامر لسموكم

— آمل أن أراك فى قصرى مصاحبة صديقى بعد اسبوع

— لـكن صديقك بعيد عن القاهرة

— اعرف ذلك لـكنه يحضر قبل مضى ثلاثة أيام

ـ حسناً إن شاء الله نتشرف بزيارة سموكم

ـ اذن الى اللقاء

ـ الى اللقاء ياصاحب السمو واترعك العناية الالهيه

*
* *

صدق سمو الامير فحضر طفلى بعد يومين من زيارته لى وأنبأنى ان والده قد وافق على زواجى به مبدئياً وانه بعد توديع سمو الامير سيعود ثانية وللخادمية)ليتمم عمله ويزف الى فى أقرب فرصة نتيجة السارة

ودعنـا سمو الامـير حتى السويس ، فقابل سموه وداعنا بالشكر ووعدنابالمراسلة فضلا عن أنه دعانا لزيارته فى مملكته فوعدناه خيرا

يقسم بين أكثر من ثلاثة آلاف من الوطنيين

يكرهونني حد الكره لانني تعلمت فى حاضرة ملكم ويحبون المرحوم شقيقي لانه نشأ على الفطرة فتعلم فى وطنه تعليما لا يغنى ولا يسمن من جوع

ولقد كتب لى صديق يحدثني أن معتمدهم حزن لموت شقيقي ، لا لانه كان يخلص لشقيقي بل لانه مشمئز من وراثتي للعرش ولو خير فى الامر لابعدنى ، ولكنه يخشى ثورة الاهالى العزل من السلاح وهو المالك للقوى البرية والبحرية التى تذل عشرات من ممالكنا

علمت انى ذاهب لاتولى العرش ولولا ان أعدائى من الاسرة المالكة ينتظرون بفارغ الصبر رفضىله لرفضته ولكن الوطن يدعونى لالبى نداءه فيجب أن البى هذا النداء

اذن فأهل مملكتي ـ ان قبلت طلبي ـ سيعدونك شبه زوج لى ، لكنك فى نظرى زوجتى .

ـ شكراً يا أميرى العزيز. يسوءنى أن أرفض طلب سموكم لامرين : الاول هو انى لا أود أن أكون خليلة فى بلد لا أعرف من أهلها أحد نعم سأكون وحيدتك ولكني في الوقت ذاته عشيقة الملك ومحظيته أليس كذلك ، ثانياً هو أن طفلى سوف يتزوج بي بعد قليل زواجاً شرعياً ينتشلني من حياتى الملوثة بالادناس

ـ من طفلك هذا ألك ابن ؟

— حقاً لقد نسيت انما أقصد بطفلى صديقك حكمت افندى

— نعم يا أمير العزيز لى ابنة ولكنها بعيدة وسوف تكون قربى عندما تحقق آمالى

ـ أتعاقد معك على ذلك ؟

ـ نعم اتفقنا

ـ اذن اهنئك واتمنى لك سعادة دائمة

يكرهون المتعلم منا ويأبون ان نتبحر فى العلم ويفضلون أن نتعلم قشور العلوم ولذا يبذلون جهدهم لتنفيذ مطالبهم

ينشرون بينا مفاسد المدنية فأنشأوا منازل القمار ، وشيدوا مواخير الفجور

لا نستطيع أن نخالفهم في أمر يريدونه ، فان فعل حاكمنا أوموظفناذلك أجبر على التنازل وان تنازلنا عن العرش حرضوا شعبنا على الثورة ،وتكون خاتمة الثورة دائما التنازل عن العرش

أرهقوا شعبنا بالضرائب وأثقلوا ظهره بفادح المكوس ، تشتغل الاهالى وتكدح ولا تحصل الا على القليل من الكسب . والسادة الفاتحون يحصلون على الكثير دون ان يلاقوا تعبا ولا نصبا

لهم بيئة خاصة وأندية مخصوصة ومشارب معلومة ، محرم على كثير منا دخولها ، عيشهم يضارع عيش أصحاب الجاه المعظمين من بني جنسهم

يمقتون الوطنية ولا يحبون من يهتف بها . أمنيتهم أن نظل دائما خدمة مخلصين لهم ،محافظين على الولاء للدولة العظيمة ، نهتف من صغرنا بعظمتهم ونشيد بقوتهم ، ونتغنى بعدلهم

تداخلوا أخيرا فى شئوننا فحرضوا جدى على سن قانون يحرم على ولى العهدمنا التزوج الامن اسرتنا المالكة ، فان امتنع ومن لم يراع حرمة القانون لا يعد زواجه شرعيا . وان استكمل الشروط الشرعية ، فلا يعد أولاده أمراء

فعلوا ذلك لانهم علموا اننا لا نعلم بناتنا ولذا لجأوالأمضى سلاح يقضي على الاسرة المالكة بالقتل .

يقدسون فى وطنهم الحرية ويتركون زعامتهم لابن الشعب ، لكنهم فى مستعمراتهم ارستقراطين جد الارستقراطية

يحبون الرتب وتغدق عليهم بلا حساب ، يطمعون فى المال فيعطي لهم المال من غير حساب ، نصف ميزانيتنا مقصور على عشرين من بنى جلدتهم والباقي

— ومن سن القانون .

— المرحوم جدى

— ألا يوجد طريق لالغائه .

— ولم .

— لان السادة الفاتحين يأبون

— أتتكرم على بتوضيح ذلك ؟

اظنك تعلمين من صديقى ان شقيقى ولى العهد مريض وحالته تنذر بالخطر وازيد على حديثه أنه توفى منذ اسبوع

وعقب وفاة أخي الذى محبوبا من والدى اكثر مني ، انتابت والدى نوبات عصبية شديدة ، فاستدعيت برقيا لتولى العرش بالنيابة لان كل الاطباء قررت بالاجماع انه لن يشفي ، ولذا سأبحر الى وطنى فى اول باخرة

ان وطنى كله ، بل سلطتنا تكاد لا توازى اكبر مديرية من مديرياتكم ، فنحن اذن كمدير فى احدى مديرياتكم

ولكن شاء السادة الفاتحون على التغرير بنا ، فساعدونا ان نظهر بمظهر الابهة والعظمة ، فوضعوا التاج فوق رؤوسنا وخاطبونا بصاحب الجلالة وما أشبه من الاسماء الخلابة التى تغرر بسطاء العقول منا ، والتى كانت سببا فى تغرير والدى ،ولا يخفاك ان والدى ما هو الا منفذ لارادة الفاتحين.والحاكم لمملكتى هو المعتمد الفرنسى ، ذلك المسيو الصغير الشأن فى بلاده

لو عرف السادة الفاتحون ان باستطاعتهم حكم مملكتنا بلا حاكم وطنى لفعلوا ؟ لكنهم عرفوا وجربوا ، أن ذلكم الحاكم الوطنى يساعدهم على تنفيذ ما يريدون

يساعدهم على الارهاق والظلم ، يساعدهم على العسف والجو، يساعدهم على تسخير ابناء وطنه اوبيع حريتهم ازاء قليل من زخرف كاذب ، وضئيل منفعة مادية ، وقليل من سلطة لا أساس لها

١٩

زيارة الامير

فى ضحى اليوم الخامس من شهر اكتوبر .... زارنى سمو الامير الامير الجليل فقابلت زيارته بالتجلة والاحترام وتجاذبنا أطراف الحديث واليك بعضه

— أظن زيارتى لم تعكر صفوك ؟

— على النقيض اكسبتنى شرفا

— شكرا . أتعلمين سبب هذه الزيارة

— كلا اجهل الدافع اليها ؟

— سأحدثك عن ...

ـ عن المخاللة

ـ لا بل عن الزواج اللاشرعى أريد ان اختص بك اتوافقين أم ترفضين

ـ وكيف تود الاختصاص بى اتود ان تتخذنى خليلة .

لا بل شبه زوجة

— ولم لا اكون زوجة ألأنى عاهرة .

— لا بل لأن هناك عدة عراقيل

— أتخشى من صاحب الجلالة والدك

— طبعا اخشاه لكن هناك مانع آخر لان رضاء جلالة والدى امره سهل بسيط

— من الموانع ؟

— القانون

بحث ونقب ، ثم كتب لى أنه يقبـل زواجى وسيتخلص من محظيته بأقرب فرصة

انتظرت واثناء انتظارى تقدم رجل كهل سرى لوالدى وطلب يدى،قبل والدى طلبه مبدئيا ولـكنى أخشي العار ، أخشي أن أفاتح والدى عن زلتى وأخشى أيضا أن افقد المهندس الرقيق

سوف اسعى جهدى لاحمل والدى على زواج شقيقى بك ، وأرجوك من جهتك أن تمدى يد المساعدة فتفشي لأخى سر نفسى وتطلبى منه مساعدتى فى رفض ذلـكم الـكهل

انك ان فعلت ذلك ، أعدك أن زواجك بشقيقي يتم

وختاما تفضلى بقبول خالص لشكرى وجليل امتنانى ؟

(فلك)

المهندس الذى تعنيه الصديقة صديقى بل هو أعز أصدقاء المرحوم زوجى ولذلك سأبذل جهدى لاحمله على التخلص من خليلته ، ولذلك أرسلت لها الـكتاب التالى أبشرها فيه بقضاء ما تؤمل واستحثها اتمام مهمتى :

الجزيرة فى ٢٢ اغسطس .....

سيدتي الآنسة .

بالبشر تلقيت خطابك ، وبالسرور تلوته ، فشكرت لك تفضلك بمصادقتى وصافحت يدك بالسرور والاعجاب

حزنت لتشبث والدك وتألمت لعناده ، وانى اشاركك فيما تذهبين اليـه وسأحمل المهندس النبيل نشأت افندى على طلب يدك بسرعة من والدك ، واحمل شقيقك أن يساعده — بعد افشائى له سر نفسك —

آمل ان تزفى لى بشرى موافقة والدنا على الزواج وختاما تجدينى على الدوام مستعدة لمساعدتك ؟

(خالدة)

لكنني بعد حديثه رثيت لهذة الفئة وقدرت عذابها حق قدره ، لا أقر بأن كلهن يستحققن العطف بل أقول أن كثيرات منهن تستحق الرحمة والحنان

أنت قديسة طاهرة بينهن ولذا لا أستنكف أن أمد لك يدى طالبة صداقتك ، محدثة اياك عن نفسي

*
* *

اعتادت الامهات المصريات أن يغرسن فى نفوس بناتهن أنهن انما وجدن فى الحياة ليكن زوجات صالحات لرجال كرام يتولون اسعادهن وترفيههن

جرياً على هذه العادة كونت والدتى المرحومة فى نفسى هذه العقيدة ولكن الله لم يشأ أن تحقق أمنيتها وتزفني للزوج المطلوب

أحببت كما تحب الفتيات ، ولكن حبى هذا أضعف قواى العقلية واستولى على مشاعرى . فأصبحت لا أرى فى الحياة الا شخص من أحب

تقشعت سحابات الحب ، وتبخرت أبخرة الهناء ، وتبدد السرور المفرط ، وتضاءل مفعول العقاقير الحبية ؛ فاذا فضيحة وعار واذا جنين يسكن فى أحشائي وعار يلطخ شرفى ، واذا بسيدى الحبيب يهرب بعد ان نال بغيته وفاز بطلبته

بحثت عنه طويلا لكن دون جدوى ، أخيرا علمت أنه قد غادر الديار فرارا من نتيجة عمله .

وأخيرا وضعت الطفل دون أن يعلم والدي بأمره لانى كنت فى العاصمة أزور صديقة لى . وفيها وضعته وفيها أربيه

تعرفت أثناء وجودى فى العاصمة بمهندس كبير يدعى نشأت افندىوكان هذا المهندس الرقيق جار لصديقتى

احبنى ذلك المهندس وأحببته وتنزهنا سوياً مرارا وراسلنى عند ما رجعت لبلدتى ، ولا أزال حتى اللحظةاراسله

فاتحنى فى أمر زواجى به فكتبت له انى لا استحق هذا الشرف العظيم لانى ساقطة

١٨

سر الصديقة

في الفترة التي قضاها طفلي في ضيعة والده يسترضى أهله ، تلقيت منه كتابا يحدثني فيه أن شقيقته ستكتب لي كتابا

واليوم تلقيت كتابها وهاك ما فيه :

الخادمية في ١٩ أغسطس . . . .

حضرة السيدة .

اكتب اليك قبل أن أتشرف بالتعرف بك ، وانما شقيقي هو الذي حدثني عنك وعن مأساتك ، فحزنت لحديثه وشاركته رأيه .

اكتب اليك اليوم هذا الكتاب وكلي أمل أن تعتبريني صديقة ، لا سيما وأنا في مسيس الحاجة لصديقة مثلك ، تشد أزري وتكون خير من أفشي لها أسراري

تعلمين الأثر السيء الذي تخلفه البغايا في قلوب الطاهرات الشريفات ، وتعلمين أن العاهرات لا يغوين الفتيان فحسب بل والأزواج ، تعلمين أنهن يسلبن ما تملك أيديهم ثم يطردوهم حين يغدون صفر اليدين ، تعلمين أن ذلك الصنف — اللهم الا النادر — جاهلات فقيرات عاكفات على الخمر والتدخين

ذلك هو الأثر السيء الذي خلفته تلك الطائفة من النساء في أذهان الأمهات والزوجات والآنسات ، وتلك تكون عقيدة كل امرأة شريفة في البغايا ، ولتسمحي أن أصارحك القول أنها عقيدتي قبل أن يحدثني شقيقي عنك ،

فارتضيت بك بعلا على الفور لظننت - ولك حق - انى طامعة فيك وربما أسأت لك من حيث أردت الاحسان لأنه قد يكون نار الحب الجنونى مستول على مشاعرك مالكه لحواسك ، فتندم حيث لا ينفع الندم

ثق يا طفلى أن كل ما فعلته لخيرك ، فتشددى واعراضى وتجاهلى واغضائى لفائدتك

لقد وضعت نفسى موضع الحبيبة الشريفة ، لا الخليلة الدنيئة ، فأبيت أن أحملك دينى الثقيل حتى ولا بعضه ، ولم أشأ أن أحرمك رضاء أهلك ولذا لم أبح لك اغضابهم ، ولم أشأ أن أعجل زواجى بك حبا في زواج شقيقتك

- أتدرى أن هذا منك صنيع جميل ذو معنى حسن وذو أثر بليغ

— شكرا وسأرى ان كنت ستثبت على رأيك أم تتغير

— لن أحيد عن حبك

— أشعر أني اكاد أقع من النوم أراغب أنت فيه

— طبعا لاننا فى ساعة متأخرة لا سيما وقد قضيت أمسى ساهرا أفكر فيك وكيف أحمل لك البشرى ؟ وكيف سنعيش فى المستقبل .

— دع الامور تجري فى مجراها

— سأطيع أمرك ولا يفوتنى أن أحدثك أني بعد غد سأسافر لبلدنا الخادمية ثانية لأرى ماذا صنعت شقيقتي فى قضيتنا وآمل أن أزف لك من هناك بشرى الموافقة

— نقتل هذا الموضوع فى الغد بحثا أما الليلة فاني تعبة فيها للنوم ...

جبينك وكأنما كانت القبـلة تياراً كهربائياً سرى فى جسمك ، فقمت بسرعة وانسللت بعجلة حتى انى لم أستطع امسا كك

ـ أ كنت تريد بعد ذلك مني الاستسلام ؟

حبذا لو كان ؟

ان كان كلامك حقاً فلم لم تقرع باب قصرى ؟

ـ كثيراً ما عزمت على قرع باب قصرك لاستأذن منـك فى الدخول ، لكنى لم أجد فى نفسى الشجاعة الـكافية لاتمام هذا العمل ، وفى حفلة الامير ساعدنى سموه عليه فحمل عن عاتقى حملا ثقيلا ولـكنك ملت للخداع

ـ ملت للخداع لاعرف قدر حبك

ولما تجاهلت معرفتي وادعيت عدم حبي وحذرتيني من هذا الحب وأنذرتيني من نتائجه السيئة خفت وقلت فى نفسى أهي صادقة فيما تذهب ؟ولما منحتيني مكاناً عليا فقبلت صداقتي وجدت أنه لايزال طريق للحب وأن قلبي لم يخطأ فى حديثة لى

ولكنى كثيراً ما غالطت نفشى قائلا :

(قد تكون صادقة فيما تذهب اليه فهى لا تأبه بى ولا تفكر فى حبي)

أصارحك القول انى خفت ووجلت وا كتأبت واتقدت نيران الغيرة فى صدرى ، خوفاً من شريك غني يغرك بماله ويستميلك بحبه الـكاذب

ولكن ظنونى وشكوكي تبددت بعد حين عند ما علمت أنك أخذت تحبينى فحدثتك عن نفسى ومددت لك يدى ، فصافحتيها ولـكن بحـذر ، وقبلت حبى ولكن بشروط قاسية ، قبلتها أنا شا كرا ممتنا

ـ مسكين أنت يا طفلى ، لقد تعذبت وكنت أنا سبب عذابك لأحسن اختيارك ، ولأ تيقن أنك لست ممن يتهافت إرضاء لشهوة نفسه

تجاهلت معرفتك وأنا بك متيمة ، صافحتك بحذر لأستبقيك لنفسى ولئلا تظن بى التهافت والطمع ، فلو صافحت يدك الممتدة باعجاب شديد وامتنان عظيم

الضحك والسرور بينما أنا حزين

ولكني شكرت الله بعد لان حزني مكنني من الاختلاء بنفسي ودرسك حق الدرس . وجدت أنت الاخرى من نفسك دافعاً لان تهتمي بأمري تدعينني للرقص ، وهكذا مهدت لي سبيل حبك ، وكل برهة كانت تمر تقر عيني بحبك الذي كان لا يزال في المهد صبياً ، فكنت أدمن النظر اليك بغية اكتشاف سر نفسك ، وعند ما أتقابل بنظراتك أغض طرفي لأرى في أعماق قلبي الصورة التي رسمها الحب فيه ، وكان يحرضني دافع قوي أن أقوى وأنتزعك من أحضان الراقصين معك ، ولكن الحياء الطبعي في نفسي كان يصدني عن غرضي

ناجيت قلبي بهذه السعادة الجديدة وسألته أهو بك مغرم ، ولما كان الجواب ايجابياً استخرت الله وسمحت لنفسي الاستمرار في حبك لاني شعرت أن ملاك الهناء يرفرف بأجنحته فوقنا ، وأخيراً حل دور رقصي فقمت بنفس ثائرة وفؤاد مضطرب ومسكت يدك الممتدة وخاصرتك ، ولكني كنت أنتفض . فهمست في أذني قائلة : (تشدد)

اتخذت هذه الكلمة رمزاً لابتداء الحب بيننا

ـ ان كان ما تقوله حق فلم تيمم داري ،

ـ التخوف من سوء مقابلتك منعني

حسنا تمم حديثك ؟

ولما انتخبنا بعد الرقص مكاناً منفرداً مظلما ، أسرعت فأمسكت يدك فلم تمانعيني في اعطائها ، ثم ضممتها بشدة فبدل أن تتألمي أو تتأوهي أو تسحبي يدك ، قابلتينني بالمثل ، ملت بعد ذلك برأسي نحوك وفي الظلمة طبعت قبلة حب ملتهبة على يدك ، وما أحسست بها حتى عرتك رعدة شديدة وتلفت يمنة ويسرة خشية أن يكون هناك رقيب .

ـ أما أنت فتماديت في غلوائك واختلست مني اخرى ؟

ـ نعم تماديت في عملي فجذبتك نحوي وطوقتك بذراعي . وقبلتك في

ـ لأمر أجهله

ـ أتستطيع أن تحدثني كيف أحببتني

تسألينني كيف أحببتك ولأحسن الاجابة على هذا السؤال ، وجب على أن أشرح كيف استطعت أن أدخل دارك فى اليوم الموعود .

تعلمين أن السيد الطبيب الذى رافقك ذلك اليوم هو الذى دعا سمو الامير ، ولما كنت من أعز أصدقاء سموه ، لانى تشرفت بالتعرف به يوم أن زار مصرنا ومنذ ذلك اليوم وأنا أتردد على صرحه ، وهو يأنس بصحبتى ويسر بعشرتى لانى كنت واسطة غشيانه المجتمعات ، وعلى الاخص مجتمعات الانس والسرور كما يسمونها ، ومجتمعات الفجور كما يجب أن تسمى . كنت أعرف الشيء الكثير عن هذه المجتمعات مصرية كانت أو أجنبية ، وكنت أعرف الكثير من بيوتها السرية التى لا يعلمها الا القليل. وكانت تلك المعرفة سبباً فى توطيد الصداقة مع سمو الامير ، الذى كان يلذ له التخفى والتستر خشية أن يفتضح فتنشر الصحف عنه وينقل الخبر لوالده فيستدعيه وأظنك علمت أن سموه النجل الثانى للملك من الملوك التى يظللها العلم الفرنسى . أما سبب زيارته لمصر وغيبته الطويلة فيها فمرض استعصى على نطس أطباء الجزيرة فوصفوا له حلوان ومياهها الكبريتية . نزح للديار المصرية وصدقت نبوءة الاطباء فأناله الله الشفاء . لكنه أبى مغادرة الكنانة ومنذ عهد قصير قال لى هامساً

اسمع يا صديقى ان أخى ولى العهد مريض وحالته تنذر بالخطر وانى أوجس خوفاً من موته وان والدى شيخ عجوز فاذا مات أخى وجب على الرحيل فى الحال وأنا أحب الرحيل لانى آنف الحكم تحت ظل الاجانب ولكن ذلك أمر لابد منه والا انتقل الحكم لاعدائى فضلا عن مصادرة أملاكى

فلما دعى للحفلة دعيت أنا الآخر ولكنى اعتذرت لان شقيقتى كانت مريضة وكنت على نية السفر لزيارتها ، ولكن سمو الامير منعنى وشدد على فى حضور الحفلة فحضرت واحتفلت مع المحتفلين واضطررت أن أجاملهم فى

ـ لا أفضل اللحظة ؟

ـ اذن أمسك عن اتمامها

ـ حسنا تصنعين

ـ أمرك مطاع ياطفلى

ـ آه حقاً انك لجميلة اليوم

الساعة جميلة لأنى فى حضرتك ولأنى شرعت فى طلاء وجهى وتزيين نفسى .

ـ لا . لا أقصد أنت جميلة اليوم

ـ حسنا أحدثت أسرتك ؟

ـ نعم حدثتها

ومن من الاسرة حدثت ؟

شقيقتى

وكيف حدثتها :

ـ قلت لها أن صديقا لى أحب فتاة كانت . . . .

ـ حسنا وماذا قالت هى

أشارت على بمساعدته على الزواج بها

ـ ثم ماذا

ـ ثم قلت لها انى أنا ذلك الصديق عند ذلك . . . .

ـ لم ترفض بل قالت : أين تسكن من تحب ؟

ـ أأخبرتها بمكان اقامتى ؟

ـ طبعاً لانى أظن أن ذلك هو الواجب

ـ ثم ماذا ؟

ـ وعدتنى وعداً صريحاً أنها ستهتم بنفسها فى هذا الامر وستكتب لك أولا

ـ ولم تكاتبنى ؟

كيف أحبني . . . . ؟

ـ من الطارق ؟ ان كان طفلى فليدخل ؟
ـ هو أنا يا حبيبتى
ـ لقد بكرت فى الحضور ؟
ـ وصيفتك حثتنى على الاسراع
ـ أتقول حقاً ؟
ـ حبك هو الذى حثنى ، الشوق لرؤياك دفعنى ان اسرع
ـ نعم الشوق لرؤياى دفعك أن تسرع ومنذ قليل تقول ان حبي لك قد خمد أليس كذلك ؟
ـ عفواحبيبتى
ـ اعترف ان حمي الغيرة أصابتك
ـ هو الحق
ـ اذن نقضت شروطي التى قبلتها
ـ لا أزال محافظاً عليها
ـ تضرب بالباقي عرض الحائط
ـ لن أفعل ذلك
ـ لا تزال محافظا عليها واليوم فقط نقصت شرطا منها وفى الغد :
ـ حسنا أسلم انك لن تفعل ذلك فما وراءك من جميل الاخبار
ـ كل ما عندى أخبار سارة ، أود ان اطلعك عليها ولكن عقب أن تنتهي من زينتك
ـ أتود اللحظة أم بعد نصف الساعة ؟

قليل سوف أفشى لك هذا السر فى القريب العاجل .

أما هبتك فهى لك — ان شئت — لانى لا أقربها الآن .

لن آخذ ما أعطيته لك :

اعدك يافتاى ان أكون لك .

شكراً ! وان كان خروجى يسرك فأنا راغب فيه

لا عدمت صديقاً مثلك فأذهب صحبتك السلامة وتجدنى بانتظارك بعد الغد .

وهكذا تخلصت من صديقى ولم أغضب طفلى

* * *

أمرت الخادم ان تكلف وصيفتى اذا حضرت بالسماح لطفلى أن يدخل على فى متزينى .

نعم هذا صحيح ، وهى الحقيقـة المرة التى يجب أن نعترف بها .

ان استعملت كلمة بغي بمعناها الحق ، أغضب استعمالى طبقة الفتى الموسر، وبيئة الشريف الحسيب ، واسرة الامير الجليل .

البغى والساقطة العاهرة . . . . مسميات لاسم واحد .

العذراء التى تقع فى شرك الحب الجنونى تفقد صوابها لان حبها الجنونى ، حبها الخالد ، الابدى ، حبها اللانهائى ، ذلك ، الحب يحكم على قواها العقليـة ويستولى على شعورها فيضعفه ، أفلا تود العذراء فى هذه اللحظة ألا انترى شخص من تحب ، فتهوى برؤيته للسعادة هويا ، ويود العـاشقان من صميم قلبيهما أن يستسلم كل منهما لتصوراته وخيالاته ، فان ساعـدتها الظروف وتزوجا انتهت المأساة بسلام ، والا فهناك العار نتيجة ذلك الحب الجنونى ، فان وجدت الفتاة من أهلها العطف بعد زلتها انقضت كذلك مأساتها بسلام والا فتهوى من مرتبة الشريفات وتنتظم فى سلك البغايا ولا يميز المجتمع ان كانت شريفة أو وضيعة فهى ساقطة ، ذلك حال الفتاة العذراء .

أما الزوجة فـكثيرما يقدر الله لها فتى فاسدا يغويها فتسقط ، فاذاسقطت، قد يخشى الرجل على سمعة اسرته فيكظم غيظه ويكتم سره وقدلا يكظم ولا يكتم فيتركها لشأنها فتلحق البغايا .

تجد البغي فى الطبقة الدنيا ، فى الطبقة الفقـيرة فى القرى والمدن ، فى الاكواخ ومتهدم الدور والمساكن . وتجد الساقطة فى الطبقـة الوسطي وفى أغلب أسر هـذه الطبقـة لافرق بين الادارى والقضائى والصانع والتاجر والـكاتب وتجد العاهرة — نعم ذلك تطرف منى ولكنى أتألم من ساقطة تدعي الشرف وتسب العهر فى بيوت الشرف، فى صروح العز، فى قصور الاسر النبيلة .

ذلك حديث ذو شجون يا فتاى اطلت فيه وأسهبت ، فان كنت تعبت من الاصغاء ، فـكلي أمل أن تـكون قد تيقنت أنى ان رفضت اليوم فلا بد ان هناك أشياء لا أستطيع التحدث بها الآن ولكنى سوف احدثك بها بعـد

والحرير ، وتزينون معاصمنا بالجواهر ، لتسروا بمرآنا

نبذل جهدنا لمضراتكم وقليل عملكم لمرضاتنا ، تضايقوننا فى كل لحظة حتى وقت نومنا

ان طلبنا الاختلاء ساعه شاهدنا الكثيرين متتبعين لخطواتنا هذا يشرح حبه ، وذاك يبث وجده والثالث يشكو لواعج نفسه وكل كاذب فيما يذهب، كل يلبس ثوب المداهنة ، ويتزيا بزى الرياء ، ويتسربل بلباس الدهاء ، كل يسعى لينال بغيته ويفوز بأمنيته ويحظى بطلبته ، مهما ضحي فى سبيلها من مال وجهد ، من كرامة نفس وسمعة اسرة

من هن البغايا

هل هن من طبقة أقل خطرا من الشريفات المحصنات . أهن نساء خلقت من طينة غير طينة البشر . أهن طبقة مخصوصة قصرت حياتها على البغى

أهن عاهرات من منذ الصغر ؟

أهن يرغبن ان يفسدن فى الحياة ويسببن الشقاق والنفور ؟

أهن يرضين بالذلة والمسكنة ويوددن تعذيب أنفسهن ؟

من طبقاتكم هن ، هن كاخواتكم وبنات أعمامكم وأقربائكم ، هن فتيات محصنات غدون ساقطات ، هن امهات صالحات غدون فاجرات

من أسقطهن ؟ وما الدافع لهن على السقوط ؟

الرجل مسقطهن والرجل دافعهن على السقوط ! الرجل سبب عذابنا

يذهب الكثير أن العاهرات فقيرات ، أصلهن خسيس دنىء ، والفقر وحده هو الدافع لهن على خوض هذه اللجة

بودى أن أقول نعم ، بودى أن اجارى من يقول ذلك ، بودى ان أصم الفقراء بهذه الوصمة ، ولكن الحقيقة تصرخ من أعماق قلبها بأعلى صوتها وتقول :

البغاء موجود فى كل طبقة والساقطات في كل بيئة

آسف أن أقول نعم

أيليق هذا .

فما أنا يا أخي الا غانية وما وعدى الاوعود غانيات والغانية تنتقل من يد ليد يساومها هـذا فتقبل المساومة وتبيعه نفسها بلا ثمن ومن يبذل لها قليلا تسلمه نفسها

أجل أن للبغايا أصـدقاء لكنهم أندر من الكبريت الاحمر أما أعداؤهم فكثيرون تهافت العشاق علينا فاعجز أن رضى كلا منهم ، لان كلا يدعي أنه بنا مغرم وبنار حبنا يحرق ولوصالنا يروم ، وشهد الله انه كاذب في ادعائه ، هو لا يحبنا ولكنه يحب أن نكون له وحده ، يجب أن يستأثر بنا

إن لبسنا ثمين الثياب ، وتحلينا بكريم الجواهر وطريف الاحجار الكريمة كنا من ربات الجمال ، فتجدهم يتسابقون بعطاياهم ، ويغروننا بما لهم ، وهم يسيئون من حيث يحسبون أنهم يحسنون ؟ يفسدون من حيث يظنون أنهم يصلحون

قد يحبنا بعضهم ، وقد يخلص لنا اخلاصاً لا تشوبه شائبة ، وقد يكون صادقا فى حبه ، ولكننا لا نستطيع أن نتنبأ أيهما صادق وأيهما كاذب لان كلا يتقن تمثيل دوره ، هـذا الى اننا لا نحب إلا من يخفق له فؤادنا ! أما دعوانا لكل فرد اننا نحبه فدعوى كاذبة لاننا لا نقابله اليوم كما قابلنا صديقه بالامس وكما نقابل ضيف الغد

سنة جرت عليها غانيات الامس ، وتبعتها بغايا اليوم ، وستقفو أثرها محظيات الغد .

تبذلون لنا كثيراً من المال لانكم تشاهدون اننا نتمنع فتغروننا بالمال فنطمع وتساعدونا على الطمع ، ونبغي وتعاونونا على البغاء ، مثلنا معكم مثل الكلب مع صاحبه . يطوق السيد رقبة كلبه بالسوار الذهبي ، ليبتهج برؤية السوار فى رقبته ، وانتم تطوقون جيدنا بالماس ، وتغطون اجسامنا بالدمقس

ما ظننت يوماً أن تهدم آمالى بهذه السرعة ، وان تكون الفترة الاخيرة سبباً فى اخماد حبك لى

طالعت بين أسطر خطابك انك تكتبين الكتاب بالرغم منك ، فدفعنى ذلك أن أخط لك هذه الكلمات ، آملا بعد قراءتها أن تعدلى عن رأيك الاول ولذا اكرر طلب السماح بزيارتك الليلة بل أرى أنها واجبة والافلا تحسن العاقبة وتجديننى فى انتظار كلمتك الاخيرة ؟

(حكمت)

طفلى يهددني بالقطيعة ، والقطيعة لا أستطيع تحمل نتائجها ، يجب أن أغضب ضيفى ولا أغضب طفلى ، لان غضب الثانى يسبب لى عناء كبيراً . فجلست وكتبت له الكلمات التالية :

الجزيرة فى ١٨ يونيه . . .

طفلى العزيز

سوف أكون وحيدة بعد ساعتين فان تكرمت بزيارتى تجدنى بانتظارك

خالدة

وبعد ان كتبت الكتاب كلفت وصيفتي أن تحمله لطفلى هى نفسها وتبلغه تحياتى وترجع واياه سويا

ذهبت وصيفتى ورجعت لضيفى فبادأنى الحديث وقال : عسى خيرا ؟ هو كل الخير يا ضيفى العزيز ، يسوءنى أن أنبئك انى لن اكون لك هذه الليلة ، لأن وصيفتى حملت لى الليلة كتاباً به أنباء محزنة وطبعاً يسوءك ان تسامر امرأة حزينة ما أسمع أنك ستقول لانى أسر ولكنى أعتقد أنك ستنقم علىّ بعد ولذلك أعتذر وأنقض عهدى الاول ،

أجل لن اكون لك الليلة لان هناك ما يشغلنى عن مسرتك ؟

أتنقضين عهدا أبرمتيه منذ ساعات قليلة .

ـ لا أجيد كما يجب . وأنت أتجيد العزف ؟

ـ نعم أجيد كما يجب !

ـ اذن تجيد عزف (صلاة العذراء)

ـ لم أسمع به

ـ اذا لم كنت تسمع به فأنت كاذب فى دعواك

ـ أقصد الادوار الشائعة التى لا تحتاج لمجهود كبير والتى نضربها فى ساعات حظنا وأنسنا أما (صلاة العذراء) فقليل من يجيدها وقليل من يعرف اسمها

ـ اذن تفضل على المعزف واضرب لى أحسن دور تتقنه

ـ قام شابى السرى وجلس قبالة المعزف وأخذ يعزف أغنية أفرنجية مبتذلة فقاطعته قائلة :

ـ لا تغنى أمثال هذه الاغاني المبتذلة

ـ فقال لى وهو يبتسم

ـ ليس ذلك عادة نظيراتك

ـ ان كانت عادتهن كذلك فبئست من عادة ؟ بالله دع المعزف جانباً أما ان كان يروق لك العزف على هذه النغمة التى لا أهواها فانى أتضايق ولكن قليلا

ـ أتحاشى أن أسبب كدرك فكيف مضايقتك ؟

ـ شكرا لك

هنا دخلت الوصيفة واسرت فى أذنى أن خادمى رجع بعدان انتظر طفلى كثيرا ولما حضر وقرأ خطابى ، غضب غضباً شديدا وكتب كتاباً وقال له أنه ينتظر ردا له . ولما سألتها عن الكتاب قالت لى أنه في متزينى

استأذنت من الشاب وذهبت لمتزيني وفضضت خطاب طفلى وقرأت فيه مايلي

العباسية فى ١٨ يونيه . . . .

عزيزتى خالدة

ـ هذه اهانة منك ولتقدمي اعتذارا عنها

ـ فان أصررت ولم أفعل

ـ خرجت دون استئذان

ـ أتجد من نفسك دافعاً.

ـ أصدقك انى لا أجد دافعاً كهذا

ـ اذا اصفح عنى

ـ أصفح بكل سرور وأزيد بطبع قبلة حب على وجنتك

ـ أتطبع القبلة قبل أن تنفذ ما وعدتنى به ؟

ـ آه . القرط الذي شاهدتيه عند كرامر ، لقد ذهبت اليه اليوم فدفعت له ثلاثمائة من الجنيهات فأبى أن يبيعه ؛ فزدته عشرين جنيهاً فأبى فرأيت أن لا أشتريه .

ـ ألأن ثمنه باهظ ؟

ـ بل لانه لا يساوى أكثر من ذلك

ـ وكم طلب هو ؟

ـ أربعمائة جنيهاً

ـ ولذلك أبيت أن تشتريه

ـ انى مستعد أن أدفع لك اكثر من ثمنه ها هو تحويل بخمسمائة جنيهاً وأظنه برهان كاف لصدق قولى أتسمحين لى اطفاء نار قلبي ؟

ـ ستطفئها بعد حين

ـ أقريب ذلك الحين ؟

ـ أمره موكول لك

ـ وكيف ؟

ـ سوف تعلمه

ـ أرى معزفاً أتجيدين العزف عليه ؟

— لأنى أعتقد أن الشبان تسمى بنات الهوى بهذا الاسم

— ولم تعتقدين هذا الاعتقاد ؟

— لان حبي لم يمنعك أن تذهب لدارك فتنام ملء جفنيك « أناخبيرات بأمثال هذا الحب المجهد وأنباء هذا الغرام المسهد »

— لا أستطيع محاججتك فى هذا الميدان ؟

— حسناً تفعل . حسناً تفعل لانك لست من أهله

— لقد تركت لك هذا الميدان

— أشكرك ، لكن لم تأخرت ومن أين أنت آت ؟

— كنت فى حفلة السباق .

— وحطابي من حمله لك ؟

— خادمي بناء على مشورتى

ـ أظن أن (عنتر) جواد صديقك عامر بك قد ربح الجائزة الاولى ؟

ـ لا يا حبيبتى ، لم يربح شيئاً بعد ان صرف عليه اكثر من خمسمائة جنيهاً أظنك تعلمين أنه كان يمني نفسه بالجائزة الاولى ولذلك لم يحجم أن يدفع ثمناً له أربعمائة جنيهاً ازدادت خمسين ، ألا تظنين أنه مجنون ؟ لأن يغرم بالخيل هذا الغرم ؟

ـ ان سلمت أنه مغرم مجنون فكيف أعدك أنت ، ان كان هو مجنون فأنت مقامر أحمق . هو يضيع ماله فى الخيول وأنت تضيعها على المائدة الخضراء . أتستطيع أن تحصى ما تخسره لأنى أعتقد أن جسارتك تربو على خسارته .

ـ ليس ذلك فى مقدورى ولكنك تعلمين يا عزيزتى أن القمار أصبح داءاً مزمناً ، فان مضى يوم لم أيمم فيه بيت الميسر تولانى سهد وتفكير طويل

ـ تقول أن عامر بك مجنون وأقول أنك أحمق ومجنون وعامر بك يفضلك بقليل

ألقاك فتحدثني عما لقيته من الصعوبة في مهمتك الشاقة ؟ لكن المقادير التي رمتني بكوارثها شاءت أن أكون الليلة في انتظار خليل . أتقبل هذا العذر القبيح وتؤجل الزيارة للصباح ؟

أنك ان فعلت أسرتني بفضلك

أألقى اللقاء في الصباح ؟

آمل ذلك م؟

(خالدة)

وبعد أن كتبت الكتاب رأيت أن يوصل خادمي الخطاب بنفسه فأمرت وصيفتي أن تكلف الخادم حمل الخطاب لطفلي الساكن في العباسية في شارع عاصم رقم ٣٥ وأمرتها أن تكلفه بتسليمه اله نفسه يدا بيد ، واذا لم يجده فلينتظره حتى يرجع فان كانت العاشرة ولم يحضر فليخلفه له وليعد أدراجه.

ذهبت وصيفتي لتنفذ ما أمرتها به واذا بها بعد قليل تدخل عليّ في منزيني وتقول

— لقد حضر سعادة حسن بك

— دعيه ينتظرني في غرفة الاستقبال

ليقض الله أمره وعلى أن أتدارك الامر جهدي

دخلت غرفة الاستقبال فاذا بفتاي مرتدياً حلة سوداء فبدأته بالتحية فقال :

— أسعدت مساء يا حبيبتي

— أأصبحت حبيبة لك ؟

— أني أعدك كذلك

— أصادق في دعواك هذه

— ولم أكذب ؟

وفى منتصف الثامنـة دخلت على وصيفتى فى غرفة الزينة وحملت الى خطاباً .

ألقيت نظرة على الخطاب أعقبتها رعشة تملكت جسمى لأن الخطاب كان رد طفلى على خطابى الأول

ففضضت الـكتاب بيد مرتجفة وقرأت وفيه ما يلى :

العباسية فى ١٨ يونيه . . .

عزيزتى خالدة

قبلت شروطك وسعيت فى ارضاء أهلى فسافرت لأمهـد سبيل ذلك واليوم آت من عندهم وسيكون زواج شقيقتى أول مهام الاسرة

سأسعى لدارك بعد منتصف العاشرة أتنتظريني . . . ؟

فالى اللقاء . . .

(حكمت)

أواه يا ربى ! ماذا أصنع ؟ وكيف أتخلص من هذا الصاحب الجديد الذى طلبت منـه زيارتى ؟ وكيف أخلف الوعد الذى أعطيته للسرى الشاب منذ زمن قصير ؟ لا مخرج لى من هذا المأزق الضيق الا اغضاب أحـد الاثنين فان أغضبت الفتى السرى حرمت من تحفة سنية وعدت بها ، وان أغضبت طفلى سبب اغضابى له حزناً ، ان لم يكن قطيعة

أرى أنه لا مفر من الاعتذار لطفلى ولذا سأكتب اليه فأطلعه على السبب الذى دفعنى أن أوجل زيارته

كتبت له عدة كتب ولـكني اعتمدت الـكتاب التالى

الجزيرة في ١٨ يونيه ...

طفلى

لا يفوتنى أن أشكرك على البشرى التى حملتها الى ، وكم كان بودى أن

١٦

بادرة غضب

مضت سبعه أيام على خطاب طفلى الاخير اعتزلت فيها أصدقائى بادعائى المرض فكان هذا الادعاء سبباً لتمهيد السبيل لمن يود التقرب منى

وكان أكثر هؤلاء رغبة سرى صغير تعرفت به منذ ثلاثة شهور زارنى فى قصرى اكثر من خمس مرات وكان يتوق دائما أن يمضي ليلة عندى ولطالما عرض على مخاللته ومساكنته فى قصره فى الضواحى حيث اكون معززة مكرمة فضلا عما أناله من المال ان قبلت دعوته ولكنى رفضت مرارا لانى لا أود أن أبيع حريتى ازاء بضع عشرات من الجنيهات أتقاضاها شهرياً

انقضى اليوم السابع ولم يصلني من طفلى آية كلمة فآثرت أن اكتب للسرى الشاب الكتاب التالى أدعوه فيه للحضور

الجزيرة فى ١٨ يونيه . . . .

عزيزى حسن بك . . .

طلبت منى مراراً أن تقضى ليلة عندى وهـذا المساء سأكون وحيدة فان استطعت أن تزورنى بين السابعة والثامنة تجدنى بانتظارك والى اللقاء ؟

(نوريس)

أمرت الوصيفة أن تكلف الخادم أن يحمل هـذا الخطاب لقصر حسن بك فى الحلمية الجديدة ولا ينتظر جوابه

***

من هم دونك وتحسدى من هم فوقك

تلك هى السنة التى أود أن تتخذيها وذلك نصحى أخلصه لك

وسوف تكونين فى القريب العاجل جوارى فاجتهد أن أحقق آمالى فيك (١)

---

(١) اعتمدت فى كتابة بعض فقرات هذا الفصل على بعض الكتب العربية والانجليزية

صدرها وتعاظم الالم وتفاقمت الغصة لكنها بالرغم من كل ذلك تكابر وتعاند وتقول :

لم أخلق لاكون أما ! !

لكن فى خلوتها لاتستطيع أن تقهر عواطفها فتذرف مدرارا من الدمع وتتعزى بمعانقة الدمية فتقبلها حر التقبيل فتكاد تقطع خدودها الجامدة وتتمنى أن تدب فيها الحياة

ذلك يا ابنتى حال من يكتم عاطفة الامومة التى هى جزء لايتجزأ منك امنيتى سعادتك وترفيهك فلو كنت شقية عاتية تسببين الجرائم ،وتولدين الشرور أو فاجرة متهتكة تقضين على سعادة أسرة من يتردد عليك فتنتزعين زوجا من زوجه وولدا من من أسرته ماانتقص قدر حبي لك

أود الابتعاد عنك لكن هى الاقدار حالت بينى وبين تحقيق أمنيتى

اكون سعيدة عند ما اشقى نفسى لأسبب سعادتك

اكون مغتبطة عند ما أعذب نفسى لأهيأ رفاهيتك

أخشى أن يصيبك المرض بدائه الوبيل فيفتك بجسمك الضئيل فتكه الذريع

لا المجد ولا العظمة أمنيتي ، لا الجاه ولا السيادة طلبتى ، لا الثروة ولا الغنى رغبتى

أمنيتى أن أحسن تربيتك وتثقيفك ، فأعلمك حسن التصرف فيما تحبي وتكرهى ورغبتى أن تكوني طاهرة القلب سديدة الرأى ،صحيحة الجسم ، راجحة العقل ، وطلبتى ان تكونى بعيدة عن الكبر والعجب والمداهنة ، بعيدة عن الجبن ، بعيدة عن الخجل الذى يذل النفس ويميت الحقيقة ، بعيدة عن الكذب والجريرة بعيدة عن المداهنة والرياء

أود يا ابنتي أن تعيشي دون ان تبغضي أحد وتحبى دون أن تغارى من أحد وترتفعي دون أن تترفعي على أحد وتتقدمي دون أن تدوسي

يجب أن تشبعي نفسك يا ابنتي بهذه العاطفة وتسعى جهدك لتنميتها في صدرك

اني جد واثقة أنه مهما أشفق الانسان على أى بائس في الحياة ، لا يوازى اشفاقه على المرأة التى تحن للطفل لأن تلك المرأة تشعر أن طفلها يصرخ فى أحشائها قائلا لها :

هبيني حياة ! هبيني حياة !

وكلما قطعت سنة من عمرها ، ومرحلة من حياتها ، اشتد هذا الصراخ وارتفع ، لكنها تضحى كل شيء على مذبح الانفة ، تبتسم بينما فؤادها يقطر دما ، تسحق شعورها الرقيق ، شعورها السامى الشريف ، لترفع رأسها وتصيح بفخار كاذب :

لم أخلق لأكون أما ! !

تشاهد فى الجو العذرى المحيط بها الفتاة الفتيه ، تنتقل للحياة الزوجية وهى تلبس الخاتم السحرى ، الذى ينقلها من حال لحال

لا تأبه بكل تلك المظاهر ، وتصر على الادعاء كذبا وبهتانا فتقول:

لم أخلق لأكون أما ! !

فتاة كهذه تدعى وتفترى ، لان كل شيء فى الحياة يحرك فى نفسها هذه العاطفة ، الاصوات الموسيقية الشجية ، والصور الفنية الخالدة ، والقصص الاجتماعية المحزنة والروايات التمثيلية المبكية ، تترجم لها بأوضح عبارة أن الامومة كل شيء فى الحياة

مناظر الطبيعة الجميلة ، السماء الصافية الزرقاء ، والبحر الرهو الرجراج ، والازهار الجميلة الحمراء ، والاشجار الباسقة الخضراء ، وصوت الرعد القاصف وضوء البرق الساطع ، كل المناظر السالفة ، تحرك فى المرأة عاطفة الامومة

تراها كلما شاهدت رضيعا ، ونظرت فطيما ، وأبصرت طفلا ولمحت صغيرة امتعضت وانفجرت الدماء من جرحها المندمل وازداد الاسى الكامن فى

أمامي ، بل نطقت به فى غيابى ، ولما حدثتنى بذلك مربيتك ، طرت فرحاً وقبلت فمها الذى هتف به شبيها بهتافك

لم أتيت يا ابنتى فى الحياة ؟ أأرسلك الله لتسببى سعادتى ؟ ومن ذا الذى ورثك زرقة عينيك ؟ أوالدك ورثكى اياها ؟ والورود الحمراء التى تزين وجنتيك من أهداها لك ؟ أخلعها عليك الورد الاحمر رمز الحب ؟ وابتسامتك الطاهرة من منحكى اياها ؟ أزودتك بها الملائكة البررة ؟ وقلبك من طهره من الشر والاثم ؟ أأصطفاك أنبياء الله ؟ ولم فضلت دار الشقاء على دار الخلود ألتكونى لى نعم العزاء ؟ ولم تنازلت عن كنوز الذهب والفضة التى تملكينها؟ أعلمت أن كنز حبى أثمن ؟ ولم أتيت هذا العالم متسولة ، تدعين أن لا نصير لك؟ ألابسط عليك حمايتى وأكون لك نعم النصير ؟ كنت حرة فى السماء فلم فلم فضلت قيود الحياة ؟ أأدركت أن فى ثنايا قلبى حب لا نهائى ففضلت أن تقيدى بأذرع أمك . من أن تفوزى بحريتك ؟

تجذبين قلبى بابتسامة وجهك الصبوح ، فأرتمى عليك وأقطع وجنتيك تقبيلاً .

سوف يحدثني الناس فى المستقبل عن هفواتك وزلاتك ، لكنى لن آبه بحديثهم .

لا أحبك لطيبتك ، بل لانك فلذة كبدى . من يرغب أن يعرف قدر اعزازى لك فليوازن حسناتك بسيئاتك . سوف أسبب ذرف دمعك . لكن فى اللحظة التى أسبب فيها بكائك ، يشاركك قلبى البكاء .

عاطفة الامومة يا ابنتى ، ولدت معى وقت أن ولدت ، ونمت فى صدرى بنمائى ، هى الميراث الذى ورثتنيه أمى ، والميراث الذى أورثكى إياه

اوصيك يا ابنتى الا تكونى من النفر الذى يبذل جهده ، ليميت هذه العاطفة من نفسه

الشقاء فى محياها ، أحسست بالرغم منى أن الحياة جميلة بمرآها فصببت كنوز حبي وعواطفي فوق رأسها الصغير الاصلع وشعرت أن شمس حياتى تشرق من ثغرها وسعادتى تتدفق من بين أصابعها الصغيرة

لولاك يا ابنتي لكانت حياتي صحراء جرداء ، لكنها بوجودك جنة فيحاء ، إن أنشودة الحياة التى تنشديها ، تساعدني على احتمال مصائبها ، وابتسامتك الطاهرة تنسينى الضجر والوجل . وتبعد عنى الخوف والزعل . عند ما أطلب لك طول البقاء ، تبتهلين لله وتطلبين غفران ما تقدم من ذنبي وما تأخر

نظراتك أيتها العزيزة تفتت القلب القاسى فتولد فيه عاطفة المحبة . ولولاك ولولا نظيراتك لكانت الارض دار حزن وشقاء ، لكنها بوجودكم مهبط البشر والابتهاج .

قد لا أستطيع أن أصف قدر حبك ، لكن حديثك المملوء بالكلمات التى لا أفهمها ، يبتهج لها فؤادى وألعابك الصبيانية ، يرقص لها قلبي

أشاهد الاطفال تلعب من وراء الزجاج ، فأود من صميم الفؤاد أن تكونى قريبة منى . أسخط على الدنيا وما رمتنى به من كوارثها ولكنى عند ما أراجع نفسى وأحادثها قائلة :

« لقد أنعم الله عليّ بابنة كانت لى العزاء الوحيد ، فكيف حال من لا ولد لها وهى تتعذب عذابى »

فى ذلك الوقت تعود لى طمأنينة نفسى وأعلم أنى بالنسبة لهن فى جنة الفردوس ، ولولاك لكنت فى نار جهنم أتعذب

آه يا ابنتى ! يا فلذة كبدى كم أحن اليك وأشتاق لرؤيتك ، وأعجب لتلك العاطفة التى تقيد قلبي وتحتم على أن أذعن لحبك ، ويلذ لى أن أذعن طائعة مختارة ، فأعبدك لا أحبك فحسب

أذكر يا ابنتى أن أمي حدثتنى ،، اني أول ما نطقت باسمها المحبوب قبلتنى وقطعت وجنتى تقبيلا ، لكن الله لم يهيأ لى أن تنطقي باسمى لاول مرة —

١٥

مناجاة ابنتى

« المال والبنون زينة الحياة الدنيا »

قرآن كريم

« السعادة نور ينبع من الحس لنشر السرور ، هي جوهر يسهل الحصول عليه ويصعب الاحتفاظ به ، هى طير ينشأ فى وكر المحبة مفتون بالحرية لا يلبث كثيراً فى عشه ، هي منبع فياض يهبه الله للانسان ، هى زهر لطيف سريع الذبول ، هى ميراث رضوانى باق للانسان منذ عهد أبيه آدم ، هى عقدة لم يتوصل الحكماء الى حلها منذ عصور عديدة ، هي حكم العقل على الهوى ، هى ظل الوجدان الابدى » (١) هى الامنية التى عللت بها نفسى طويلا وبذلت جهدى لنوالها ولكن الله لم يهيء لى الفوز بها . حسبت أنى سأنالها في الزواج ولكن سعادة الزواج كانت كطيف الخيال ، عللت نفسى بالذرية ولكن الله شاء أن يبعدنى عن وحيدتى بعد أن فجعنى بزوجي واذا بعد قليل يحيي كتاب طفلى ميت الامل فى صدرى ويعدني بحياة الشرف ، وبلقيا وحيدتى زينتى والحياة ، التى ولدتها بين الابتسامة والالم ووضعتها بين الحزن والاسى ، ولما رفعت رأسي من الوسادة لاراها ، ولا قرأ

---

(١) نقلا عن خواطر الأميرة لصاحبة السمو الاميرة الجليلة قدريه حسين وتعريب الاخ عبد العزيز أمين الخانجى

قد كذب فى حديثه لى

أنت تعلم أن لك أسرة ، ولهذه الاسرة شرف يجب أن لا يدنس ، وتعلم أن لك شقيقة وشقيقتك عرضة للزواج — كما علمت — ، ألا تظن أن فعلتك هذه تمنع طلاب زواج شقيقتك من طلب يدها ؟

ان كان ولا بد من تنفيذ مطلبك ، فليكن ذلك برضاء أسرتك وفى مقدمتها والدك الكريم ، وشقيقتك الطاهرة الوديعة . وأستحسن أن يكون ذلك عقب زواجها ، لئلا يكون زواجى بك حجر عثرة فى سبيلها

ولما كان الزمن هو الكفيل أن تزيد وثوقا من نفسك ، فلا بد أن يكون هناك فترة لذلك وسأخصك طول هذه الفترة بصداقتى وأجتهد أن أخفف ثقيل دينى ، فلا تصبك حمة الغيرة ان أكثرت التقرب من الاغنياء فما تقربى منهم الا لمنفعتك. أعرف أنك تروم دفع الدين، لكنى لاأود أن أثقل كاهلك به

ان صادفت شروطى هذه هوى فى نفسك فأسرع لدارى تجدنى بانتظارك على أحر من الجمر

وان لم تصادف شروطى هوى فى نفسك فتكرم بزيارتى كصديق لا كخليل

رضاء والدك عن زواجى بك شرط أساسى ، وابنتى قبل كل شىء ستكون بيننا ما دامت النار التى أعيش فيها قد أطفئت . أتمانع فى ذلك ؟

تروَّ فى أمرك وتدبر ، ولا تعص أولياء أمرك ولا تتشدد معهم ، بل كالمهم بالتى هى أحسن وليكن شعارك حسن السياسة واست واضعة نفسى موضع الناصح لك . لكن ذلك ما يمليه علىّ الاخلاص

وختاماً تقبل خالص تحياتى ؟

خالدة

الجزيرة فى ١٠ يونيه ...

« طفلى »

لله درك يا طفلى حقاً انك سليم الطوية نقى القلب ، أتظن انى أشاركك فى كل ما ذهبت اليه ؟

تقول انك شارب للخمر متردد على العاهرات ، مقتصر على واحدة منهن ثم محب فتاة لا أعرف عنها شيئاً . هل لا تزال حية فتنافسنى فى حبك ـ ان سلمت جدلا أنى سأحبك

أعتقد ـ ويشاركنى الكثيرون ـ أن من تجمع فيه الصفات السالفة لن يخلص فى الحب

ولكن لما كان لكل قاعدة شواذ فهل تحملني على الاعتقاد أنك من شواذ هذه القاعدة . ان كان ذلك ما تريد ، فأسلم به

لم تحدثنى بشىء عن غيرتك وهل تغار ممن أصاحبهم قبل عهد الزواج ـ ان سلمت جدلا أنه سيتم ـ يظهر لى انك تلتهب غيرة علىّ لانك تقول لى « أريد أن أختص بك »

ولكن لا أدرى هل نسيت أو تناسيت ابنتى ؟ أتسمح لى أن أحبها أو تغار منها ؟

يخال لى أن فكرة الاختصاص بى مستولية على عواطفك . ولما كان يسرنى أن أصرح لك أنى أحبك بل أنى أحببتك منذ اللحظة الاولى لذا أود أن أنتشلك وأختصك لنفسي

أود أن أجاريك فيما تذهب وأصافح يدك الممتدة باخلاص ولكني أشعر أن قلبي يحدثنى قائلا :

« مكانك لا تتقدمي ويدك لا تصافحى بها ذلك الشاب بل دعيه يصادقك أولا ثم يتزوجك »

ذلك نداء قلبي وذلك ما أسير بمقتضاه لانى لم أشعر حتى الآن أن قلبي

حياة العهر أشرف من حياة الطهر ، بل لانك تعتقدين أن العاهرة لايحق لها أن تتطلع لحياة الشرف مرة أخرى

لا احجاجك فيما تذهبين ، ولاأبرهن لك على فساد ما تعتقدين ، بل أحدثك أن كل من تعرفين لا يوافقونك على أرائك هذه

اتحدت الآراء فى هذا الصدد انه ان وجدت البغى رجلا يغفر سيئاتها ، ويتغاضي عن ذلاتها الماضية،ويتناسى ماضيها المملوء بالمخازى ، ان هيأالله لها ذلكم الرجل بل ذاكم الشهم الكريم — عفواً لست أصف نفسى كذلك — وكانت تحبه وعاهدها هو الآخر على الاخلاص ، فى ذلك الوقت يجب عليها أن تمد يدها باخلاص وتصافح يده الكريمة

أتتبعين يا سيدتى رأى الاغلبية وتصافحى يدى وتعاهدينى كما أعاهدك ؟ قد تعترضين فتقولين !

« لن أفعل ذلك لانى لست أهلا لك ولان الحب متملك عواطفك فان انتهزت أنا هذه الفرصة ، سوف تندم فى القريب العاجل ولا أضمن أنك لا تهجرنى فتتركني عرضة للمقادير ، بعد أن اكون قد نعمت بعيش الشرف ردحاً . »

أعاهدك يا سيدتى عهدا شريفاً انى لن أركب هذا المركب ، وباستطاعتى أن أفى جميع دينك لان لى مهنة تدر علىّ بالخير وأن أقدم لك نفسى واسمى وتفضلى يا حضرة السيدة بقبول خالص الاحترام ؟

« حكمت »

رأيت أن أنتظر يومين فى ثالثهما أسطرله رأيى خوفاً من أن أتأثر بكلامه فأحيد عن الصواب وفى اليوم الثالث كتبت له ما يلى :

يكفيني أن أعرفك اني من اسرة لم تعرف بالغنى بل كان لدينا ما يكفينا أن يحسن والدى تربيتنا — أنا وشقيقتي — أرقي تربية فأنا كما تعلمين خريج الحقوق ، ولما تخرجت خيرنى بين العمل فى دوائر الحكومة أو أحترف مهنة المحاماة ، لكنى فضلت الثانية لانى لا أحب القيود الحكومية

لم أحترف المحاماة على الفور ، بل رأيت أنه يحسن بى أن أقضى ردحاً من الوقت أمتع نفسى فيه عقب زمن الدراسة الممل ، حتى أستطيع فى هذه الفترة أن أجدد قواى الضائعة ، أعرف أن رأيى هذا يخالفني فيه الاغلبية الساحقة لكن ساعدنى على تنفيذه فضلة من مال خلفته لى والدتي

نشأت كما ينشأ الكثير من طبقتى ، فكنت من المترددين على البغايا لكنى كنت أقتصر على واحدة منهن ولزم التردد على البغايا شرب الخمر ولكن ... فتاة كريمة انتشلتنى من هذه الحياة الممقوتة ، أحببت هذه الفتاة وأخلصت لها الحب لكن الظروف لم تساعدنى الزواج بها. يكفى ماصرحت لك بشأنها لانى لا أستطيع أن أصرح لك بأكثر مما صرحت ؛ دعى الامور تسير فى طريقها فسوف اكشف لك سر حبى

لا يتسرب لذهنك انى لا أحبك ، فاياك أن تخافي من هذه الحبيبة فهي لن تناوأك.

يسرنى أن أصرح لك انى أحبك الآن اكثر من حبى للحبيبة الاولى ولكنى أرجح أن السبب فى ذلك لتشابهكما العظيم

لقد انتهيت من الحديث عن نفسي وسأتبعه بما آمله منك

أريد أن أن أختص بك ،لا أريدك محظية ، ولا أطلبك خليلة ، بل أطلب يدك لاتخذك زوجاً لى

سوف أبذل جهدى لاخفف همومك ، ولأسعدك فى الحياة .

قد تعترضين على حديثِي هذا فتضعين العراقيل فى هذا السبيل لا لا ن

لست محدثك عن الشيخ الكريم ، الوزير الجليل ، الذى وهب ابنتك ما يشكر عليه ولا عن وعوده الطيبة الجميلة التى أثق أنه سيفيها لان صفحته نقية طاهرة ، وسعيه لتخفيف الحكم الاجنبي عنا مشهور معلوم ، فان كنت لم أذكر اسمه فحديثي ينم عن شخصه

لست محدثك عن نفسية الملتفين حولك من شبان ورجال ، من أغنياء وعظماء ، أولئك المتهافتين على جمالك وملاحتك ، الملازمين لك كظلك . أعرف ما يطلبون ولم تهافتون ؟ ولم يكثرون من الهدايا والتحف ؟ ولم يلحون ويلحفون ؟ أنهم يعجبون بجمالك وملاحتك ، يعجبون بارتدائك ثمين الثياب التى يهدونك اياها ، يعجبون بك ان تحليت بنادر الحلى وثمين الجواهر ، يعجبون بك لانك تضربين على النغمة التى يحبونها ، يعجبون بك لانك تتمنعين وتتدللين ، يعجبون بك — وحق لهم أن يعجبوا — لانك تخلفين عهودك وتناقضين وعودك ، ولانك أصبحت محظية العظماء والامراء من أغنياء مصر ونزلائها

أنى أتقد غيرة عليك وأخش أن يضع هؤلاء المفسدين حداً لطهارتك أخشى أن يصيروك شيطانة رجيمة لا أطلب منك مستحيلا ، ولا ألتمس مالا قدرة لك عليه ، أود أن تحبينى بعض الحب وأنت أعلم بكلمة (الحب) التي أرددها هيأى لى سبيل مساعدتك قدر الامكان ، دعينى أخفف بعض أحمالك الثقيلة .

قد تعترضين وتقولين

« ما بال هذا الشاب أغفل حديثه عن نفسه بل حدثنى عن حبه فقط »

أجل تملكتنى العاطفة فأنستنى الواجبات ؟ فلأعود لحديثي عن نفسى .

لست محدثك عن أيام صباى ولا عن معيشتى فى الايام التى تعد دائما فى حياة الانسان أسعد أيام حياته بل أرى من المستحسن أن أحدثك قليلا عن والدى واسرتى

العديدة التى مكنت فى نفسى حبك

أحببتك منذ أول يوم قابلتك فيه أحببتك منذ راقصتك وكانت القبلة التى وضعتها على جبينك هى تقدمة محبتنا وشجعنى على السير فى سبيلى عطفك علىّ واستسلامك لى وكنت كلما عطفت زدت أملا واطمأنت نفسى بهذا الحب الجديد حدثنى قلبى أنك سوف تحبينى واعتمادا على حديثه استمررت فى حبك

لجأت لكتابة هذه الرسالة بل هـذا الاعتراف المخجل لافصح لك عن أمور ستحدثك بها الناس بعد ، ان لم تكونى سمعت بعضاً منها ، وقد يكون ما نقل لك على غـير حقيقته فلا كفيك محاولة السؤال ولا كفى نفسى مشقة تحضير الجواب ولا سيما قـد لا أحسن الاجابة أو دحض الافتراءات الذى يتهمونى بها ، ثم استطرد بعد ذلك لم آمل منك أن تجيبينى عليه ، ثم تقديم نفسى وقصر حياتى على تهيئة سبيل سعادتك

لست محدثك عن أصلك وفصلك ولا عن اسرتك المجيـدة لانى علمت أنك لست عاهرة كما تدعين ولا أفرنجية كما تذهبين علمت أنك مخلصة جـد الاخلاص واخلاصك جرك للدمار ، علمت أمر ذلك السافل الدنيء ، ذلك النطاسي النذل ، علمت كيف اضطرك أن تذعنى لارادته وتنفذى مطلبه علمت كيف قادك لهـذه المعيشة وكيف حسن لك طريق الشر المملوءة بالاشواك وكيف أعانك على قرض المال وشراء ثمين الاثاث ، حتى غدوت مثقلة بالدين ، ولا مناص من أن تحترفى هـذه الحرفة لتفى ثقيل دينك علمت كيف ينتهز هؤلاء اللصوص المرابين الفرص فينصبون لك الشباك ويقدمون لك ما لهم بفاحش الربا يتمسكنون حتى يتمكنون ، فاذا ما قبضت مالهم حاسبوك حتى على أنفاسك التى ترددينها فان تأخرت عن الدفع هاجوا وماجوا وأنذروا وهددوا وقدموا طلبات جديدة ولا مناص لك فى هذا الوقت من أن تذعنى لم يطلبون من فاحش الربا

١٤

حديث الشب عن نفسه

تردد طفلي على كثيراً ولكنه طول هذا الوقت لم يبح لى بحبه ولعله خشى أن أسفه كلامه وأضرب بأمانيه عرض الحائط ، فلجأ لقلمه لما أعيته الحيلة وسطر لى خطاباً طويلا ، هو أشبه باعتراف منه بخطاب

قرأت ذلك الخطاب كلمة كلمة ، قرأته بامعان ، وكثيراً ما عدت بعض فقراته ، ويسرنى ان أن أصرح انى كنت مغتبطة أثناء قراءته، كنت مسرورة وسرورى هذا يعادل سرورى عند ما أقرأ كتاباً دينياً يهدي للخير، أوحكما مأثورة تنير طريق حياتى . كيف لا والكتاب أضاء طريقى المظلم

استطعت أن أستنتج أن كاتبه كتبه باخلاص ، كتبه باخلاص لانه يعترف اعترافاً لا يشوبه كذب أو تضليل ، يعترف بصراحة كأنه امام قاض عادل يعترف بصراحة لانه يريد أن ينصفه ذلك القاضى العادل فيريح ضميره

لاحظت أن صفحات الكتاب الاولى كتبت بروية وخط جيد ، أما الاخيرة منها فباضطراب وسرعة وقد لاحظت أن بعض أسطره يصعب قراءتها ولعل ذلك راجع — على ما أرجح — لدموعه الزكية التى كان يسكبها

واليك الرسالة الضافية

العباسية فى ٧ يونيه . . .

الآنسة نوريس

يحمل لك رسولى النسيم سلام اخلاص وتحية ولاء وبعد

مهما كتبت أراني عاجزاً أن أصف قدر اخلاصي لشخصك بعدالزيارات

ـ آه نعم هناك الطلاق ولكنى لا أستطيع

ـ ولم ؟

ـ لان الطلاق فى اسرتنا عار

ـ والفساد شرف ؟

ـ هو الواقع

ـ لله أنتم معشر النبلاء أسأتم من حيث أردتم الاحسان

ـ هون عليك يا صديقى أرجوك أن تكون وسيطا بيننا سرى عنهـا همها ، عدها مواعيد خلابه ، منيها برغد العيش فى المستقبل ، حدثها : أنى سأثوب لرشدى ، وأرجع عن غي ، وأعرف قيمة زوجتى ، اجتهد أن تسكن نفسها الثائرة ، أنك ان فعلت ذلك نلت من الله الجزاء ومنها العطف ومنى الشكر

ـ أتقصد أن أمنيها أمانى كاذبة وأعـدها وعوداً لا تتحقق وأصور أمام عينيها المستحيل بصورة الممكن أتريد أن أصورك لها ملاكا كريماً تغرم بلعب الميسر لا بالعاهرات

ـ هو ما تقول يا صديقى

ـ انى ان حاولت أن أعمل ذلك لا أضمن لك النتيجة

ـ جزيت خيراً

وهكذا مهد لى سبيل مصاحبتها وتلك قصة محالتى

لم أستطع أن أسمع أكثر مما سمعت فاستأذنت من سمو الامير وبعد اللتيا والتى أذن لى ذهبت لمنزلى وهناك اعترتنى حمة شديدة من هول ماسمعت من هول الحديث الذى لم أفكر لحظة أن مثل هذه الاعمال الشائنة تحدث فى قصور كبارنا والآن وقد علمت فلا عجب

لكن تعلم يا صديقي أن حليلتك أنبل من محظيتك فضلا عن أنها أشرف وبطريق آخر يصعب عليّ أن أقارنهما

ـ ذلك حق ، ولكني أصدقك القول أني تزوجت زوجتي ارضاء لاهلي وما كنت راغب فى هذ الزواج ، كنت أود أن أقضى حياتى مع من انتشلتها من حياتها المملوءة بالاثم ، كنت أود أن أسعد هذه الفتاة التى أحبتنى ، حباً قديم العهد ابتدأ من زمن طويل ، منذ كنت طالباً فى المدرسة الثانوية وطبعاً تعلم أني مهما كنت غنياً فان مرتبي كان محدوداً فكيف أخلفها الآن وقد أصبحت فى يسر ؟ بل كيف أبخل عليها ؟ كيف أتركها لشأنها ؟ هل يليق أن أفعل هذه هذه الفعلة ؟ أيليق أن أترك أمرأة لا نصير لها ؟

ـ انى سلمت أنك محق فيما تذهب فلى سؤال ألقيه عليك . أتعدني بجواب صريح له

ـ نعم أعدك

ـ أ كفرت من تحبها عن ذنبها ورفضت كل من يتردد عليها أم لا تزال طاهرة ؟

ـ حتى اللحظة لا تزال . . .

ـ نعم ! نعم ! فهمت هي لا تحبك لكنها تحب مالك ، ولذلك تؤثرك على عشاقها ولكني أصارحك أن لزوجتك عليك حق ؛ يجب أن تفيه لها والا اضطرت هي الاخرى أن تسلك طريقك ، أنت تضطرها للفساد وقد يساعدها أصدق الناس لك على ارتكاب هذا العمل وكما تزرع تحصد

ـ أتهزل أم تجد ؟

ـ ولم أهزل ؟

ـ لانى لا أظن أن زوجتي تفعل ذلك

ـ لو كانت زوجتك ملاكا لفسدت . هناك طريق آخر يخلصك منها ويقربك من محظيتك هناك، الطلاق

سأفشى لك بعض سرى عساك بذلك تستطيع أن تساعدنى على اصلاح حال زوجى التى أصبحت تغار على جد الغيرة .

فقلت له وأنا أتجاهل الحقيقة ؟

كنت أظن يا صديقي انك سعيد كما يجب ، فاذا بحديثك ينم عن تعاستك ولكن لا أدرى من منكم سبب هذا الشقاق الطفيف ؟ أعرف زوجتك جميلة وفى الوقت ذاته سرية وأزيد أن أخلاقها رضية لا بأس بها ، فأظن أنها لا تسبب الشقاق ولذا اعتقد أنك أنت نفسك سبب هذا النفور .

— لا ! بل هى مسببة النفور .

— ولم تسبب النفور ؟

— لان حمة الغيرة تصيبها .

— وممن تغار ؟

— من خليلتى .

— ومن خليلتك ؟

— هى . . سنية . . هى من أحبها من خمسة سنوات ، هى من أتردد عليها ، هي التى اختصصتها لنفسى ، هى من رفضت كثير من المتردد ارضاء لى

— عاهرة هى ؟

— نعم .

— ولم لم تتزوجها ؟

لأنى أسرتى ابت زواجى بها

— أنى أعرف محظيتك وأقول – وتشاركنى القول – أن زوجتك أجمل منها

— نعم هذا حق . لكن الحب ، الساحر الجميل ، القديس الطاهر أعمي بصيرتى ، لقد أسرتنى عينيها العسليتين ، وفتننى شعرها الاسود الحالك فصرت لها ذليلا وفضلتها على قرينتى

مضجعها من شهر زواجها الاول فأجبتها انى سوف أعود لمصر بعـد ثلاثة شهور عندما انال الشهادة .

مضت المدة وعدت لوطنى المحبوب وكتبت لهـا كتابا ثانى يوم وصولى انبئها فيه باوبتى ، وفى غد اليوم الثانى لتاريخ الكتاب زارتنى هى نفسها ، فأثرت هذه الزيارة فى نفسى اثرها المطلوب فترددت على قصرها ومهدت لى سبيل مصادقة زوجها .

يجدر بى ان احدثكم ان الفتاة منذ أيامها الاولى من النشأة الجديدة ، النشأة الأفرنجية ، النشأة التى نصف كلامها فرنسى والنصف الآخر (عربى وافرنجي) ، النشأة التى اعتادت عادات الغرب الضارة والنافعة منها ، النشأة التى تفخران يكون لها كثير من المعجبين بها المتهافتين على جمالها الملازمين لها فى الغداة والعشى .

أما زوجها فمن ذلك النفر الذى يقضي نصف نهاره الثانى نائما وليـله ساهرا ، من النفر الذى يتردد على المخطيات لا الشريفات المحصنات بل العاهرات الفاجرات .

لم تكن تجرأ أن تخالل لأنها خشيت الفضيحة والعار ولما كنت صديقها منذ عهد بعيد ووالدها يعلم بصداقتى لها ، لم تجد بأسا ان أصبح خليلا لها . وكم حـدثتني مرارا بسعادتها وغبطتها وشكرت الظروف التى هيأتنى لمسرتها .

ويظهر ان تكرار زيارتها ولد فى نفسى الحب فأحببتها ومنـذ تلك اللحظة سعيت جهدى اما ان استخلصها لنفسى أو أرجعها زوجها . فأوعزت لها ان تضايقه عساه يرعوى بذلك أو يتبرم فيطلقها . ولمـا ضاق ذرعه منها فاتحني بأمرها فقال لى : —

— سمعت ياصديقى انك كنت صديقا لزوجتى أيام تلمـذتها ولذلك

تلك قصتى يا اخوانى واصدقكم الحق أنى حتى اللحظة لم اخنها وعازم ان أبر بوعدى .

فقال . احداخوانه

ــ اتستطيع ان تبر بعهد شديد كهذا .

وهنا اعترض للجواب صديق شاب فقال :

نعم يستطيع ، كما استطعت انا ان استخلص لى زوجة صغيرة ويسرنى ان احدثكم يا اخوانى انى مسرور بالمعيشة معها لأنى قضيت معها الآن اكثر من سبعة شهور ، وعازم ان استمر فى هذه المعيشة اللذيذة .

هنا قال أحدهم !

— نعم . أليست عصفورتك هى كوثر . . . هانم زوجة وكيل النيابة.. تحسين بك . .

— نعم هى ! هى ! أو ليست جميلة ؟

— فقال أحدهم

— أنها لفاتنة

— وقال آخر

— بالله حدثنا كيف استطعت ان تأسر هذا الغزال الشارد ؟

— حقاً انكم أغبياء يا أصدقائي . كنت أعرف هذه الفتاة منذ عهد الدراسة . كنت صديقا لها وكثيراً ما تقابلنا بصرحنا أحيانا وبقصرها اخرى ولما أرسلنى والدى لأوروبا لأتم دراستى ، تعاهدنا على الزواج ، وأخذت هى تراسلنى ولكن قطعت المراسلة لأنى أحببت هناك فتاة الهتنى عن مراسلتها ، ولما سمعت انها خطبت من فتى لا تحبه رأيت ان استعمل هذا الظرف الجديد لاجد العهد لمراسلتها ، جددت العهد وعاهدتنى ان تمهد لى سبيل صداقة زوجها ليتسني لى التردد عليها ، ومنذ عهد قريب بعثت الىّ بخطاب تحثنى فيه على الاوبة لأنها حزينة بائسة لا سيما وزوجها كان هجر

يرتكبه أحد من أفراد اسرتى اني ان فعلت ذلك دنست شرف هـذه الاسرة بالعار .

لم يستطع ابى بعـد هـذا الحديث الصريح ان يفاتحة فى شيء من ذلك

— ولـكن بالله حدثنى اليس زوجى به مس فى عقله ؟

— ولـكن لما عجزت أن أجاوب السؤال ، تابعت حديثها قائلة

— تخش ان تقول نعم ، تخش ان تقول زوجى أبله لانه يعتقد أن الطلاق يدنس شرف الاسرة أما فساده فلا يدنسه ، الفساد الذى يصبح ويمسى فيه لا يصم هذا الشرف بوصمة العار ، لـكن الطلاق يصمه .

ومع ذلك رأيت أن اتابع الصبر ولما نفذ صبرى ، ولم يأخـذ والدى بنصرتى ، فضلت ان افسد فساده واخالل كما يخالل ، رأيت ان اعمـل ذلك جهرة أمام جميع الخـدم عسى ان يحدثوه بسر نفسي فتصيبه حمـة الغـير فيرجع عن غيه .

كنت أواعـد كثيراً من خـلاني فى قصري ولـكن لا أدرى أأصبح لا شعور له حتى انه يتغافل عن ذلك أم انه لا يعرف شيئاً من سرى حتى اللحظة

سرت فى طريقى الجديدسنتين تنقص عدة من الاسابيع ولـكن اصارحك انى شعرت الآن بملل من هذه المعيشة ، وفـكرت مرارا فى الانتحار لـكن طفلى حبب لى الحياة .

فقلت لها وأنا متأثر من كلامها . . —

لو استطعت لا تخذتك زوجةشرعية فان فاتني الزواج الشرعى فلا يفوتنى اللاشرعي ، لا تفوتنى المخاللة الشبيهة بالزوجية . ولـكنى أعدها الزوجية فان قبلت طلبتى فانى اعاهدك ان ابر بوعدى حتى آخر لحظة من حياتى

ـــ شكراً ياعزيزى ، لا أطالبك البر بوعدك لـكن أعدك انى سأبذلك جهدى لاختصك لنفسي ، سوض اعاملك كزوج وسأرى ماذا يكون من أمرك .

أعتقد أن زوجي يعطف علي ويخلص لي الحب ، ولكني علمت ويحزنني اني علمت بسرعة ، علمت أن زوجي لا يحبني وانما يحب ملاحتي ، وما كلماته المذبة التي فاه بها الا الاحاديث التي تعود أن يجامل بها خليلاته

لم يمض على زواجي اكثر من شهور ثلاثة حتى هجرني زوجي فكنت لا اقابله الا ضحى فصبرت على مضض ، وشرعت من طرف خفي ارجاعه عن غيه ولكني اخفقت وأخيراً التجئت لمهنة التجسس الدنيئة ، التجئت لهذه المهنة لاعرف من هن خليلاته ؟ وهل عاهرات هن ام شريفات ؟ وان كن من المحصنات فلمن ينتسبن ومن هن أزواجهن ؟

علمت أن خليلاته متنوعات فبعضهن عاهرات والاخريات زوجات وفتيات.

أرسلت لهؤلاء الخليلات الرسل والوفود وأعلمتهن بامري ، لكن ذلك كله لم يجد نفعاً .

لجأت بعد ذلك لتأنيبه لكني اخفقت لاني كلما انبته ازداد فسادا ولما اعيتني الحيل فاتحت والدي في أمره فقال بعد ان بحث ونقب وتحقق صدق قولي :

— سيرجع لصوابه بعد حين ، فيثوب لرشده ويؤوب لمنزله ويقدر ولده الوحيد قدره .

صبرت دون جدوى وأخيراً فاتحت والدي في أمر طلاقه فلم يصغ أولا لندائي ، لكني عندما كررت الطلب وتحقق انه من المستحيل صلاحه فاتحه في الامر فقال له .

— سأرعوي .

ولكنه لم يبر بوعده بل كرر خطأه ولما كرر والدي الطلب ازداد إصرارا وعنادا وقال .

— لن أفعل هذه الفعلة ! أأطلق زوجتي ؟ أأرتكب العمل الذي لم

ـ أتزوج السيد غيرك ؟

ـ نعم ولا

ـ كيف ؟

ـ لم يتزوج زوجاً شرعياً بل خالل عدة خليلات من ربات القصور

ـ أعتقد أنه مخطىء فمن ذا يكون زوجه هذا البدر ويخالل امرأة أخرى؟

ـ ذلك رأيك فى وهو رأى زوجى فى أوائل أيام زواجى . ولكن حدثنى ألك زوجة ؟

وهنا والحق يقال خجلت ولكننى قلت :

ـ نعم زوجة ريفية

ـ ولم تخونها ؟

ـ لانها ليست جميلة

ـ أتحلف ؟

ـ أقسم أنها لكذلك وأزيد أنها مهملة

ـ لا بأس ان كان ما تذهب اليه هو السبب الذى يدعوك لذلك فلك بعض عذر ، أما أنا شخصياً فلا أوافق على هذا الرأى ، لك زوجة فيجب أن تخلص لها .

ـ واذا كانت قبيحة ؟

ـ ولم تزوجتها ان كانت كما تدعى

ـ لانها غنية

ـ اذا تجرى وراء المال .

ـ نعم لان عصرنا أصبح مادياً : فكل يجرى وراء المال ومع ذلك دعينا من هذا الحديث ولنتحدث عن الحب

سمعت كثيرا من هذه الكلمات العذبة أيام زواجى الاولى وكم كنت أسر لمثل هذا الحديث لانى كنت أعتقد أن زوجى صادق فى حديثه ، كنت

تعلمون يا اخوانى انى كثير التنزه فى الجزيرة وذات أصيل شاهدت فاتنة جميلة راكبة سيارتها ومنتحية مكاناً منعزلا

أوقفت عربتى بالقرب من سيارة الفاتنة وسددت نحوها نظراتى ولم أنتظر الا سبع دقائق حتى شاهدت سائق سيارتها متجهاً نحوى

نزلت من عربتى وبدأته بالتحية ثم قلت :

ـ ألا من سبيل لمحادثة الهانم ؟

ـ هناك سبل عدة يا سعادة البك

لاحظت أنه يريد رشوة فنفحته جنيهاً ذهباً فقال على الاثر :

انى ذاهب يا سعادة البك لاستئذانها

لم يغب أكثر من خمسة دقائق حتي عاد ثانية وهو يقول :

ـ سيدتى بانتظار سعادتك

ـ اذاً اذهب لسائق عربتى وحدثه انى آمره بالرجوع

ذهب الحوذى لينجز مهمته وسددت أنا خطواتى نحو سيارتها

فتحت باب العربة بعد ان بدأتها بالتحية المعتادة فى مثل هذه المجالس

وبعد ان ردت علىّ بأحسن منها أمرتنى بالجلوس جوارها ، جلست جانبها وأنا أحسب ألف حساب للمقدمات والنتائج ، وأحدث نفسى قائلا :

الى أين أذهب وأين تقودنى قدماى ؟ أالى الخير أم الى الشر ؟

بدأتني السيدة بالحديث فانقذتنى من هذه الورطة فقالت :

ـ من السيد الكريم ؟

أسرعت فقدمت لها بطاقتى ولما تناولتها وقرأت اسمى قالت :

ـ أظن السيد زار قصرنا مراراً ، وتفضل بتناول طعام الغذاء على مائدتنا دفعات ، آخر دفعة كانت منذ خمسة أيام

ـ أظن السيدة من قصر الوجيه . حسن باشا

ـ نعم انى زوجته وأم ولده الوحيد

شكراً اذهب أما أنا فسأتنحى مكاناً منفرداً أراقب فيه الجمع عن كثب

***

جلست فى مكان مظلم ، بالقرب من جماعة من الاصدقاء ، من النفر الذى يتعاون على الفساد ، والبغى ، والاثم . وكان ذلك مكون من خمسة من الاصدقاء عرفت منهم ثلاثة ، أحدهم شيخ سرى عجوز ، والثانى قاض من القضاة فى العقد الثالث من عمره ، أما الثالث فشاب من أبناء الاغنياء ومن خريجى كليات سويسرا ، أما من جهلتهما فلا أظنهما الا من حاشية الاغنياء لانه فضلا عن أن ثيابهما تنم عن ذلك فقد شاهدت أن أحدهما كثير الكلام ، والآخر يؤمن على ما يقول ويستدركه فى الحديث ان نسى بعض الشىء

تباينت أعمار هذا النفر واختلفت درجاتهم، لكن غايتهم اتحدت فكلهم محب للفساد يسعى له جهده

جلس الاصدقاء الخمسة على خوان واحد وشرعوا يرفعون الستار عما ارتكبوا من الفظائع ، وما اقترفوا من الكبائر ، وما جنته أيديهم من الجرائم

تكلم أكبر الجالسين سناً وكان كهلا فى العقد الرابع من عمره وهو من كبار الاغنياء إلا أنه شحيح بخيل ، لم أسمع أنه عضد مشروعاً وطنياً ، لكنه يصرف من غير حساب على ملذات نفسه .

قال ذلك الكهل وعلامات الفوز مرتسمة على جبينه

— أعلمتم ما حدث لى ؟

فقال أحدهم وكان شاباً فى مقتبل العمر ويظهر من ملبسه أنه من الوسطاء الذين يرافقون الاغنياء

ـ لا لم نحط بذلك علما

وقال ثان وكان رجلا فى الثلاثين :

ـ أوفقت لصيد ثمين ؟

ـ هو ما تقول يا أخى

أني أحبك ولكن في مقدرتي أن أقول أن لك في نفسي مكاناً سامياً .

لقد كذبت وتجاهلت معرفتك وادعيت أني لا أذكرك ولا أذكر اسمك مع اني قد اخترتك للرقص معي وجالستك بعد الرقص برهة وتجرأت أنت فقبلتني . ومن تلك اللحظة فهمت كل ما تضمر فهمت أنك أخذت تحبني فملت لك ورثيت لحزنك والحزن يميل لنظيره

لا يتسرب الي نفسك اني أحببتك فتعد هذا مني وعداً بذلك فاني فضلا عن اني لم أنطق بها ، لا أستطيع ان نطقت بها ان أحافظ على عهدي أي طفلي .

تقول انك تحبني فان كان ذلك حقاً فأنت تود أن تراني كثيراً . وتود أن تتردد على داري وقد أسلفت لحدثتك أن لك في نفسي مكاناً سامياً ولذلك سأعدك منذ الآن صديقاً ولكن حذار أن تمني نفسك أكثر من ذلك . حذار أن تجاري أحلامك فتظن اني أصبحت لك وانك قد خدعتني بألفاظك المذبة فاقنعتني بما قلت ؛ اقنع بالمركز الذي وضعتك فيه ولا تسترسل في الاحلام ، انك ان فعلت عضضت بنان الندم . لا تسترسل في حبك الذي تدعيه بل اجتهد أن تساعد الدهر على اطفاء لهيبه ولتلاحظ اني لن أكون لك أسيرة يوما .

قد تقول انه سيأتي يوماً ما أحبك ، فان كان ذلك حق فانما هو حب ألتمس به التعزية والسلوى لنفسي .

سأخصك أخيراً بمكرمة قلما خصصت بها أحد — حتى الآن — تلك المكرمة هي وعدي لك أن أقابلك حين تشاء وسنتنزه سوياً بعيدين عن هذا العالم المملوء بالشر والاثم .

والآن اذهب بسلام فاني أخشى العتاب والملام ولتستعن على حوائجك بالكتمان والى الغد عصراً في منزلي

ان كان ذلك ما تأمرين به فأنا لامرك خاضع

وبعد ذلك أقبل أحد الخدم وطلب محادثة الامير فاستأذن سموه وذهب
— لاحظت أن وجه الاستاذ حكمت تهلل بالبشر فتابع حديثه قائلا :
— أتعلمين يا سيدتي اني أحببتك منذ رقصت معك واني أعد الدقائق القليلة التي تكرمتي بمجالستي فيها أسعد لحظات حياتي
— أنت تعتقد ذلك لانك شاب كريم ولكن ألست مغالياً فيما تذهب؟
— لست مغالياً . فاني منذ اليوم الذي قابلتك فيه أفكر فيك وفي الطرق التي توصلني لانال رضاك وأكشف سر حزنك الذي تجتهدي أن تخفيه
— لست حزينة ولا بائسة بل أنا فرحة مسرورة كما يجب ، أصاحب سريا فان مللته خاللت آخر وهكذا تجدني كالعصفور أتنقل من شجرة لاخرى ولا أقع الا على الشجرة التي أحبها
— أجادة فيما تذهبين ؟ أظن ! لا . بل أؤكد أنك لا تتكلمين الحق بل تمارين

يخيل لي يا طفلي الصغير — ولتسمح لي أن أخاطبك بهذا الاسم لا استصغاراً لشأنك بل اعزازاً له — أنك تتكلم الحق وتنطق بالصواب ومن ذلك يتبين لي أنك كثير التردد على المحظيات ولكن أواثق أني أحبك ؟

ذلك ما أمني به نفسي وأعد اليوم الذي أسمع من فمك كلمة أحبك أهنأ أيام حياتي — بل وقت بزوغ شمس سعادتي وهنائي

لكن أتعلم أن معشرنا « قد ابتذل الحب فبعنه بالثمن فهن يحببن بالصناعة لا بالفطرة »

— أعلم ذلك ولكن بالرغم منه أحبك من صميم القلب .
— عواطفك النبيلة جديرة بالاحترام وأنت خليق بالاكرام لكن أتظنني أخلص لك الحب ؟
— ذلك ما أنتظره وأكثر منه أنتظر .

اسمع ياطفلي : سأكشف لك عن الحقيقة : أنا لا أستطيع أن أقول

قد يلتمس لها العذر لو كانت جميلة ولكنها كما ترينها لم يهبهما الله قسطاً كبيراً من الجمال وكل الشبان يأبون التقرب منها لانها فضلا عن انها ليست جميلة فهي تعجب بنفسها كثيراً وتتدلل على المتقربين منها .

وبينا نحن فى الحديث اذ اتى ذلك الشاب الذى شعرت بالميل له ويظهر ان سمو الامير كان قد كلفه بمهمة فأتى ليعلمه نتيجتها

بدأنى بالتحية وعلائم الاضطراب بادية على وجهه

وهنا قال سمو الامير

اتذكرين يوم دعوتينا لقصرك ؟

وكيف لاأذكره وفي اليوم المذكور تشرفت بمعرفة سموك ؟

اذا تذكرين ذلك الشاب الذي كان رابع مراقصيك فى حفلة الرقص

أظننى لاأذكره — وهناطبعا تعمدت الكذب لان ذكراه لم تبرح مخيلتى —

فقاطع الشاب حديثنا قائلا

أظنك خاطئة فأنى تشرفت بمعرفتك قبل اليوم

فقلت ودلائل التفكير مرتسمة على وجهى

قد يكون ولكني لا أذكر ولقد تعرفت منذ ذلك اليوم بكثيرين غيرك

فقال سمو الامير

ـ اذاً أقدم لك للمرة الثانية الاستاذ حكمت . . . .

ـ وأما أنت ياحكمت فأظنك لاتجهل الآنسة نوريس

ـ لى الشرف أن أتعرف بك ياحضرة الآنسة للمرة الثانية

ـ عفوا ياحضرة الاستاذ فلست الامحظية . . .

كيف ؟ كيف ! انى أقرأ فى محياك كرم الطبع ونبل الصفة

— ذلك رأيك فيّ الا أن الكثيرون يخالفونك فيه — وأنا أشاطرهم المخالفة .

— أنت وردة جميلة وسط الاشواك لذا تحدثى دائما عن نفسك بالسوء

أفتش عن سمو الأمير فاذا به جالس على كرسي كبير وعن يساره فتاة إفرنجية رشيقة وعن يمينه امراة متوسطة الجمال يظهر لى انها شرقية

بدات سموه بالتحية فقام وصافحني مصافحة الصديق . وقدم لى كرسياً لأجلس قبالته ولكني اعتذرت ولما شاهد امتناعي عن الجلوس قام واصطحبني لمكان منفرد وامرني بالجلوس

جلست لكني ابتدأته الحديث قائلة .

ماذا يريد سمو الأمير ؟

اني اريد الاختلاء بك قليلا

ذلك ما ارومه . لكن ايليق وسط هذا الجمع الحاشد فضلا عن ان سموكم لم يستأذن من السيدات اللاتى كنتم تجالسونهن . والآن تجدونهن قد حقدن على لاني انتزعتكم من بينهن وانا لا اود ان ارى فرداً حاقدا على فان كن عشيقاتكم فلتهنئوا بهن فانهن جميلات .

ما هذه الجرءة ؟

اى جرءة ابديتها فى حديثي . اونسيت انكم لم تتكرموا بتقديمى لهن كما يقضى بذلك الواجب وازيدان سموكم لم يتكرم بتقديمى للمدعوين كما وعدني حقا نسيت وسأبدا بهذا العمل فى الحال .

شكراً ياسمو الامير .

دعينا من هذا الحديث وهيا بنا اقدمك للمدعوين

تأبط ذراعى واخذ يقدمني للمدعويين ثم جسلنا فى احدى زوايا الصالة وتجاذبنا اطراف الحديث فقال : —

اتعرفين السيدة التى كان يتأبط زراعها السيد . . . . ؟

لا لم اتشرف بمعرفتها الا وقت ان تفضل سموكم بذلك ؟

ان هذه السيدة تتظاهر دائماً بالغني ، وهى معجبة بنفسها جداً وزيادة على ذلك تحب ان تظهر للناس أنها تخالل فتيان اغنياء

آمل أن تتكرمى بأخبارى هل تجيبين الدعوة أم ترفضيها ؟
وانتهز ياحضرة الآنسة هذه الفرصة لاقدم لك كبير احترامى وعظيم اجلالى ؟

سليمان رضوان

كتاب مقتضب ذو معنى كبير مملوء بالغمز واللمز ، ولكن مع ذلك سأحضر هذه الحفلة لانها ستكون واسطة تعرفى بكثير من النبلاء الذين أود ان ادرس احوالهم واعرف اخلاقهم فأسرعت بكتابة كتاب قبول الدعوة

الجزيرة فى ١٦ مايو . . . . .
ياحضرة الوكيل
تكرم برفع الكلمات التالية لسمو الأمير ؟
اشكر لسموكم تفضلكم بدعوتى للحفلة الساهرة واعد هذه الدعوة اعظم منة وسأبادر للحضور مادام تشرفى بمقابلتكم يسر سموكم
وتفضل ياصاحب السمو بقبول خالص الاجلال والاحترام ؟

نورييس

وتقبل ياحضرة الوكيل عظيم شكرى واحترامى ؟

نورييس

*
* *

حان اليوم الذى ضرب للحفلة الساهرة فرايت ان اتعمد التأخير فى الذهاب وفى الساعة العاشرة خرجت من صرحى ويممت قصر سمو الامير فاذا قصر جميل وسط « حديقة عالية قطوفها دانية » واذا بوكيل الأمير يتقدم لمقابلتى فدخلت القصر فاذا انواراً تلألأ فى ابهائه وحجراته
« دخلت فاذا الراقصين والراقصات يسبحون فى بحر من الهناء والسرور ويطيرون فى اجواء مختلفة من اللذائذ والمناعم » فظللت ادير عينى بينهم

كثب الشجيرات الدائمة الاخضرار زاهية بازهارها العسجدية ، جمالها ساحر فتان ، هو جمال الربيع

آه ما اجمل الربيع !

ما اجمل العيش فيه وما اسعد من يتمتع بهذا الجمال ؟

أتشعر حزينة بهذا النعيم نعيم الحياة نعيم الربيع ؟

أتقدر بائسة هذا الجلال جلال الحياة جلال الربيع ؟

اتمتع عاهرة بهذا الهناء هناء الحياة هناء الربيع ؟

اتنشد بغي هذا النشيد نشيد الحياة نشيد الربيع ؟

ذلك ما تتمتع به السعيدة الخلية من الشجى ، أما من تتمتع بمسرات ممزوجة بأحزان ، وتسر بملاه مشوبة بأشجان فتلك من البائسات

***

عدت لصرحى بعد أن قضيت ساعتين فى الخلاء وأخذت بريد الصباح فاذا بخطاب من سمو الأمير فضضته فاذا فيه ما يلى : —

قصر الدوبار فى ١٥ مايو . . . . . .

حضرة الانسة نوريس

كلفني سمو الأمير او أكتب لك الخطاب التالى :

الآنسة نوريس

تفضلت بدعوتى ذلك اليوم الذى عرفتك فيه لأول مرة ويسرنى أن أخبرك أنك وقعت فى نفسى موقعاً حسنا

لقد حددت يوم ٢٩ مايو . . . . ميعاد الليلة الساهرة التى سأحييها بقصرى ، لذلك أدعوك للحضور وآمل ألا تخلفى لانك ستكونى درة هذه الحفلة وتسنح لى الفرصة أن اقدمك لكثير من الكبراء والفضلاء اللذين ستسرين بمصاحبتهم وتقبلى تحياتى ؟

أمير سعيد

١٣

صرح الامير

استقظت هذا الصباح مبكرة وشعرت بضئيل ارتياح ففضلت ان اتنزه قليلا في الحقول المجاورة لصرحي

خرجت من الصرح راجلة مرتدية ثوبا بسيطا تصحبني وصيفتي ،وكنت مسرورة بعض السرور فتنزهت في الحقول التى تبعد عن صرحى أكثر من الفين مترسرتها على قدمى فانتهيت لحديقة غناء جلست فيها على العشب الاخضر والاشجار . فلذلى ان اخط على القرطاس جمال الربيع،تذكارا لاول يوم شعرت فيه بضئيل ارتياح بعد احترافى مهنتى الجديدة

آذن الشتاء بالرحيل ، وهلت بشائر الربيع ، وطفقت الاشجار تفيق من سباتها العميق ، اورقت الغصون ، وظللت الاشجار على الغادى والرائح ، ورطب النسيم برد والشتاء وتفتحت اكمام الازهار بعد طول الغياب ففاح شذا عطرها بتضوع فى الآفاق

صفت السماء وازرقت بعدطول الاكمداد وارسلت الىّ ذكاء اشعة ضوئها الذهبي فما اجمل نشيد ربيع الحياة ! لقد اهتز كل حى فى النبات وربا،وتبوأت دولة الجمال مقامها السامي ، فنثرت ازهارها المتباينة الالوان المختلفة الانواع فبعثت لنا الورد الاحمر رمز الحياة ، وحبيب العشاق ووشاح الحب فى دولة الايام من قديم الزمان

ابتسمت الطبيعة فحق للنفس ان تتمتع بنعيم الحياة لاسيما وقد آن للزهر ان يجود وآن للحياة ان تطيب

اكتست الارض اثوابها الزبرجدية القشيبة ونثرت الاشجار ازهارها ، فمن نرجس يعانق وردا ، ومن خزامي يناجي سوسنا ، وهنا وهناك ترى عن

وانا لا أود أن تربي ابنتك من نقود العهر

اقبلى يا ابنتى هذه الهبة منى ، عدينى كوالد لك ، أكون لك شاكرا ، ان ماسأهبه لك شهريا قليل : هوعشرة جنيهات اقسميها قسمين قسم لتربيتها والآخر ادخريه لها للمستقبل لان هذا المبلغ سيقطع عند موتى

لم أتمالك أن اذرفت الدموع فتابع حديثه وقال :

لاتبكى ياابنتى احتملى المصيبة بصبر جميل واكتفى بالقليل من الصحاب ، وحاولى جهدك أن تستخلصي لنفسك رجلا كريماً منهم ؟ لينشلك من هذه الحياة ويردك لحياة الطهر ، ثقى يا ابنتي ان الله سيساعدك وان حياتك الجديدة لا تدوم طويلا

فقلت له والعبرات تخنق فؤادى .

اى والدى ـ اسمح ان اخاطبك بهذا الأسم لانك شيخ كريم ـ نصائحك سأتبعها كلها وما طلبته اليه واى وقت تزورني فيه تقابل بالتجلة والاحترام وابنتى سأربيها على حبك ، سأقول لها انك جدها وآمر مربيتها ان تعلمها كيف تحبك

شكراً لك ولتأذنى لى الآن بالانصراف فانى الاحظ انك منهوكة القوى كما تأمر ياسيدى الوالد ولترعاك العناية الألهية

*
* *

وهكذا خلفني . وخرج بعد ان اسرنى بفضله وساعدنى على تربية ابنتي بنقود شريفة

شيخ كريم كهذا قليل الوجود فى هذا العالم

حجاب ، وأزواجهن وأبائهن وأخوانهن تجهـل كل الجهل الطريق الذي يسلكنه . يفعلن ما يفعله العاهرات ويزيد ، ويعددن عرفاً طاهرات شريفات لا خائنات فاجرات ، ويمينا بالله ان الزوج الذي يعلم ان زوجته قد اصبحت فاسدة لانها سلمت عرضها لفتى . لو عرف الزوج والوالد حقيقة الامر لقتلهن شر قتلة ولـكن الامهات والخادمات يسترن أمرهن ويكتمن سرهن والرجل يجهـل ذلك كل الجهل . هن شريفات طاهرات وعاهرات فاجرات في الوقت نفسه .

أجل ذلك حق واضح ويسؤني ان ذلك اصبح منتشراً في اغلب الاسر وخصوصاً الكبيرة منها

أسمعت ياسيدي الوزير قصتي ؟

نعم سمعتها ورثيت لحالك وفي الوقت نفسه عددت الطبيب نذلا لامروءة له ، وأود من الصميم ان اقدم لك مساعدة ما وكم أكون سعيدا لو استطعت ان انتشلك من هذه الحياة التي لم يمض عليك فيها أكثر من شهر ، لكني كما ترين شيخاً عجوزا على أبواب الايديه • كما اني في الوقت نفسه مثقل بالدين من جراء لعب الميسر ، الداء قضى على زوجك ، لقد ضاعت املاكي كلها من جرائه واليوم اصرف نصف مرتبي وفاء لديني

فجعت بموت ولدي الوحيد من خمس سنوات ومنذ ذلك اليوم وانا مجنون أقامر دون حساب حتى خسرت أملاكي ونصف مرتبي

لا أود أن أكون لك خليلا ، ولا أرغب أن أكون عشيقا فاني إن فعلت تعرضت لسهام اللوم فضلا عن أني لن اكون محبوبا منك

هناك محلا وسطاً بين ذلك ـ سأكون كوالدك وسأتردد عليك في أي وقت وسأبذل لك نصائحي وأقدم لك بعضاً من مرتبي لا كأجر على سماحك لي بالتردد عليك بل كمساعدة تساعدك على تربيـة ابنتك التي سمعت أنك أودعتها ملجأ لتربيتها ، لأن البقية التي بقيت لك من النقود لا تكفي لتربيتها

« اسبانية » فاستطعت ان اعرف انك تكذبين . وفد لاحظت انك وان كنت عاهرة الا انه لم تبدر منك بادرة تنم على انك فتاة ساقطة

انى وزير كبير ولكنى قبل ذلك كنت موظفاً صغيراً وكنت أيام فتوتي صديقاً للكثيرات من العاهرات المصريات منهن والفرنجيات واستطعت من كثرة ترددى عليهن أن احكم أن كل العاهرات والمخطبات والعشيقات — ان صح أن أطلق عليهن هذه الاسماء ـ لاتقابل عشيقها أو المتردد عليها الا بالكلمات الجارحة والسب الفاضح وهن يعتقدن ـ وكنت أشاركهن هذا الاعتقاد ـ ان ذلك عين الاكرام . أما مقابلتك يا أيتها السيدة كالشريفات ذوات الطهر والعفاف لانى فى حفلة الرقص كنت رقيبا على كل كلمة تتكلمينها فلم تبدر منك هفوة صغيرة

قد تتعرضين وتقولين :

ـ انى لاأزال صغيرة السن لم أحترف هذه الحرفة الا منذ عهد قريب ؟

ـ قد يكون ذلك صحيح ولكن مهنتك تضطرك ان تكونى كما أسلفت تضطرك أن تفجرى فجرهم ، واعتقد انك ان كنت افرنجية كما تدعين، وعاهرة كما تذهبين لما قابلتيني مقابلة كهذه

فان كان كل ما استنتجته خطأ أقول ان ملامحك تدل على انك مصرية الابوين . فان انكرت ما سلف فلا تستطيعين ان تنكرى ذلك

ـ حدثنى الدكتور « حسنى » أنك ابنة السيدة . . . . وزجك عصمت بك . . . . . أليس كذلك ؟

كل ما سردته حق يا عطوفة الوزير وقد اقدمت على اختراف هذه المهنة لان الطبيب فشى سرى ولست بعملى هذا الاولى من نوعى فكثير من الفتيات قد شاركن الرجال فى الدعارة والفساد ويحزننى ان اصرح أنهن يتفنن فى هذه الاعمال ، حتى أصبحت الزوجة لا تأنف ان تخون زوجها ، والفتاه لا تجد بأساً ان تسلم نفسها لفتى أظهر لها حباً كاذباً ، يفعلن ذلك من وراء

ـ كيف حال السيدة اليوم ؟

كثيرة التفكير من يوم ورود خطاب عطوفتك

اسبب خطابى لك حزناً ؟

لا بل سبب تفكيرا

ان الامر هين بسيط ، لقد سمعت بعض الحديث عنك من اشخاص متعددة وهذا الحديث متضارب . وسأبدأ بطرح بعض الاسئلة عليك وآمل أن تجيبينى بصراحة ولا تخش بأساً فلست بفاش سرك

لقد بلغت من العمر أرذله وشاهدت فى حياتى عجائب كثيرة ،وترددت على كثيرات من بنات الهوى ، الافرنجيات والمصريات ، وكنت كذلك مصاحبا سيدات محصنات زوجات رجال كبار .

ولقد أنبت منذ خمس سنوات وعكفت على الصلاة لانى شعرت أن ساعتى قد حانت . ولقد قبلت دعوتك وراقصتك لانى قبل ذلك سمعت حديثاً متضارب عنك ، واليوم زرتك لاتحقق من الحديث المتضارب .

— سوف تجدنى ياعطوفة الوزير صريحة فى كل شىء

— أأنت فرنجية ؟

— أشككت فى ذلك ؟

— نعم شك كبير فان كنت فرنجية فلأى الاجناس تنتسبين ؟

— هنا فكرت ثم قلت

ــ انى اسبانية .

أنت تراوغيننى ولا تطلعيننى على الحقيقة : تدعين انك افرنجية ، فان سلمت أنك تجيدين الفرنسية كالفرنسيات أنفسهن ، ألا انى لا حظت انك تفكرين قبل أن تنكرى لئلا تبدر منك بادرة تنم عما تخفين من أسرارك .
وعند ما سألتك عن جنسيتك فكرت ثم قلت لى وحمرة الخجل تزين وجنتك

الشيخ الكريم

تسلمت هذا الصباح الخطاب التالى ·

حدائق القبه فى ....

حضرة الآنسة .

ان اول نظرة القيتها عليك ذ كرتني بحوادث عديده وقد سمعت عنك حديثاً متضاربا اود ان اتحقق بعضه منك فان تكرمت بانتظارى يوم الخميس القادم عند منتصف الخامسة اكون لك شاكرا

وتقبلى خالص تحياتى ؟ ع . . باشا

فكرت كثيرا فى هذا الخطاب المقتضب وحاولت ان افهم سبب هذه المقابلة لكنى لم اجد الا سبباً واحدا ذلك هو ماضى . . . . .

اجل يظهر أن الطبيب فشى سرى لكل انسان حتى انى اصبحت مضغة فى الافواه تتحدث الرجال بقصتي فى اوقات سمرهم ولولا ذلك ماطلب عطوفة الوزير مقابلتى .

*
* *

حل اليوم الذى حدده عطوفة الوزير موعدا لزيارتى وقبل ان تأزف الساعة المضروبة طلبت من الوصيفة ان تشيعه لغرفة الاستقبال حيث اكون بانتظاره

ولم انتظر الا القليل حتي اعلنتنى الوصيفة بقدومه .

ولما دخل بدانى التحية جامدة حييته بأرق تحية واجاسته فى صدر المجلس — ثم تجاذبنا اطراف الحديث واليك طرفا منه :—

سعادة البغى سعادة كاذبة وهناؤها ممزوج بالاشجان ولكني لا ادرى. أجهل الكتاب ذلك ام يتجاهلون ؟ ولم يقلبون الحقائق رأساً على عقب ؟ او أوليس امر هؤلاء غريباً ؟ أو ليس حكمهم خطئاً؟ وتلك النظرات التى ينظرون بها للبغي نظرات غريبة لاأستطيع تكييفها .

يعلمون ان العاهرة تخالف دائما ضميرها فتظهر الحب لمن تعاف نظره وتتظاهر بالبشر حين ترغب فى البكاء ، تظهر لهذا الحب وتعاهده على الاخلاص فان اتى الآخر أقسمت له انها لاتحب غيره ، تظهر للجميع حبا تختلف درجته باختلاف قدر المال الذى يبذلونه لها .

ذلك حب البغى لمن يبذل لها المال سعياً وراء منفعة . فان قدر الله لها ان يدخل الحب قلبها غالبا يكون ذلك الحب سبب شقائها والقضاء على البقية الباقية من حياتها ، لان من تحبه لايشاركها عواطفها وقد لايشفق بل يعتقد ـ وله حق فى هذا الاعتقاد — انه حب من اجل مال فتتعذب هى وتشقى فى الحياة وغالبا تختم حياتها اما بالانتحار او بالانهماك فى تعذيب المترددين عليها فان كان الاول وضعت حدا لشقائها الدنيوى وان كان الثانى عاثت فساداً واصبحت شيطاناً رجيما . اما ان احبها من كانت تحبه يكون هذا الحب لها نعم العزاء

تحققت بعد ذلك أن حب الطبيب لى كان حباً شهوانيا فى البدء ولكنه بعد قليل أصبح حباً محرقا وأخذت نيران الغيرة تدب فى صدره فابتعدعنى وندر أن طرق باب صرحى أما انا فاحتقرته وقد كان هذا الاحتقار أحسن علاج له . فلم يمض على فى حياتى الجديدة أكثر من شهور سته حتى خطب ابنة أحد كبار الاغنياء لكنه لم يهنأ فى عيشة معها بل شقى شقاء عظيما فكان ذلك الشقاء جزاء وفاقا .

* * *

دخلت غرفة نومي واخذت أفكر فيما شاهدته فى هذه الحفلة وما أستطعت ان ادرسه من اخلاق الضيوف الذين لبوا دعوتى . فتحققت ان السادة الرجال ان كانوا يتظاهرون باحترام البغايا الا انهم يحتقرونهن ويعدونهن وسائل لارضاء شهواتهم . لا يفكر الرجل عندما يجالس البغى لم تسقط ؟ وما الدافع لها على السقوط ؟ وهل هى قانعة بمعيشتها ام متبرمة منها ؟ وهل اذا اتيح لها عيش الشرف ترفضه ؟ .

قد يفكر بعضهم فى هذه الاسئلة لكن سرعان مايضع هذه الافكار جانبا ولا يفكر الا فى التمتع بالسيدة التى تحاول ارضاءه بكل ماتستطيع .

هناك رأى يقول : ان المال هو الوسيلة للسعادة فى هذا المجتمع واعتماداً على هذا الرأى وضعت عدة اسئلة وهاك بعضها :

لم يسرق اللص فيسجن فى اعماق السجون ويسام سوء العذاب ؟ولم تبيع العاهرة عرضها فى سوق الفحش ؟ ولم يتعادى ـ الاشقاء فيسفكون دماءهم ويرتكبون الجرائم ؟ ولم يغلب القوى الضعيف ؟

وأصحاب هذا الرأى يقولون : اليس المال هو السبب فيما سلف فان كان هذا صحيح وعلى ماأظن لايخلو من قسط كبير من الحقيقة فقاتل الله عصراً أصبح المال معبود أفراده .

مبهوراً ، مسحوراً خاشعاً ، وقد نسيت ذاتك الحيوانية السافلة فالاجدر أن تعد من أرباب الفنون بل من نوابغ الدنيا (١) »

لقد كنت أنا الراقصة التي يعنيها الكاتب لامع كل من رقصت بل مع الشاب فقط لأني وجدت دافعاً من نفسي يدفعني أن أرفعه الى ماقوق المبتذل ويمكنني أن أقول انى من ابتداء تلك الرقصة شعرت نحوه بميل غريب لأنى بعد الرقص وجدت دافعاً من نفسي أن اختلي به ولذلى فى هذا الوقت مجالسته ولقد كان ذلكم الشاب جريئا فانه قبلني فأحرقت قبلته جبيني وكأنها كانت تياراً كهربائياً سرى فى جسمى ، فانسللت عقبها بسرعة من بين يديه .

حانت ساعة انصراف المدعوين فأخذوا يخرجون الواحد عقب الآخر وكان سمو الامير والشاب — اذا أستثنيت الطبيب — آخر من خرج وعند خروجه نظرلى نظرة وداع عندما لاحظ انى مهتمة بتوديع سمو الامير

أراد الطبيب الذى مهدلى سبيل هذا العيش أن يمضى بقية ليلته عندى لكنى أفهمته انى تعبه وأخشى أن لاأسبب سروره فيحقد على فلينظرنى ليلة أخرى أن غداً لناظره قريب .

يظهر انى استطعت أن أقنع الطبيب فان علامات الرضي والقبول كانت مرتسمة على أساريره

أجل كنت منهوكة القوى هذه الليلة ولكنى فى الوقت نفسه لم أشأ أن أستبقى الطبيب عندى لانى عزمت أنلا أملكه نفسى مرة ثانية

نعم . سوف أكون لغيره وسوف أكون لاحقرمنه ولكنى لن أكون له مرة ثانية . لتكن اللحظة التى قضت عليّ حتى سقطت فى الهاوية ، الاولى والاخيرة بيني وبين الطبيب . لن أكون خليلة له فان أراد مصادقتى فسأكون صديقة فقط فان رغب ذلك فأنا راغبة وألا فلا يلومن الا نفسه

---

(١) نقلا عن زنبقة الغور لامين الريحانى .

لقد فعل ذلك ليستلفت نظرك ؟

إن كان هذا الادعاء صحيحاً فكان يجدر به ألا يكون حزيناً بل فرحاً مسروراً لأن معشر البغايا لا تميل للحزين . وغالبا لا يهمها من أمر الشخص جماله فقط بل تبحث أيضاً عن ماله لأنه بيت القصيد

كان الجميع يحاولون التقرب منى لأن كل فرد كان يتوق أن يجالسنى منفردة ولا أدرى ماذا يريد أن يسره الىّ ؟ أيريد أن أكون محظيته ؟ أم يريد أن يشرح لى حبه ؟ أن كان الامر الاول فانى سوف أكون له أما الادعاء الثانى فكاذب فيه لأن ساعة أو اثنتين لاتولد حباً .

نحن معشر البغايا لايهمنا من الحياة الا المال فالواحدة منا ترمي شبا كها على الغنى الموسر فتصيبه بلحاظها وتظهر له الحب الشهوانى بينما تبطن غير ماتظهر . هى لاتحب الا ماله ولا تود الا أن يكون أسيراً لها . تود أن يقدم لها قلبه فان فعل سحقته بلا رحمة ولا رأفة وهكذا الثانى فالثالث .

*
* *

« الرقص فن من الفنون الجميلة تحرك النفس فى السامى من أنواعه . قبل أن يحرك الجسد . ترفعه العفة فتحطه الخلاعة . تزينه حركة فتشينه حركات يعززه الذكاء اذا قرن الى رقة وكياسة وتفسده الخفة اذا قرنت الى فواحش الفكر وسوافل الحواس .

« الرقص سراج وهاج يبهر فيسحر . هو شعلة نار تحرق فلا تنير . هو وحشى اذا ملكته الربلات وسادته الجوارح . هو سماوى اذا استخدمت هذه فيه ، كما يستخدم الرسام الالوان والشاعر الالفاظ .

فأية ذات نهدين ياترى لاتستطيع أن ترجرج صدرها وتذبذب أردافها فتهيج الحيوان فى الانسان ولكن راقصة ترفع بك الى مافوق المبتذل من الشهوات دون أن تلجأ الى المبتذل من حركات الراقصات ، فتشخص اليها

الحفلة الراقصة التى سأحييها فى صرحى الصغير فى حى الجزيرة في اليوم السادس عشر من ابريل .....

*
* *

مادقت الساعة تسع دقات حتى أخذ المدعوون يفدون ذرافات ووحدانا واذكر أنه كان بينهم ثلاث سيدات افرنجيات اثنتان منهما فرنسيتان والثالثة ايطالية وعلمت أن اولاد النسوة عشيقات ثلاثة فتيان من ابناء سراة مصر فكن نحن الاربعة كل النساء فى هذه الحفلة التى لايقل عدد رجالها عن الثلاثين

لم أكن اعرف انسانا من المدعوين ولكن الطبيب ـ ساعدى الايمن ـ كان يعرفهم ، فتكرم بتقديمى لهم .

ولماتقرر أن يبدأ الرقص فى منتصف الحادية عشرة فلىء دفترى المعد لتسع رقصات باسماء الراقصين قبل البدء فى الرقص بنصف ساعة . وكان الطبيب قد حسن لى اختيار ثمانية منهم أما انا فاخترت التاسع .

وجعلت دور الشاب الذى اخترته الرابع بالرغم من أنه كان يجب أن يكون الاخير لانه كان آخر من أخترتهم ولكنى اردت أن يكون الرابع فكان وكان على رأس الراقصين امير شرقى يحكم والده احدى جزائر المحيط الهندى ولقد كان أول الراقصين أما ثانيهما فوزير جليل من وزراء مصر السابقين من الذين طلقوا الوزارة المصرية وأخلدوا للراحة والسكون أما الثالث فعضو فى مجلس .... ومن اعاظم رجال مصر

فاتنى أن أذكر أنه ساعة أن دخل الأمير لاحظت أن الشاب الذى أخترته يصحبه ولكن الشاب التزم مكانا منعزلا فلم يختلط بالمدعوين فاحترت فى أمره وحاولت أن افهم حقيقة نفسه فأخفقت ولقد حاولت مرارا أن أرجع عن عزمى وأعدل عن اختياره بالرغم من أنه كان صغير السن جميلا ولكن عزلته دفعتني ألا أرجع عن عزمى ورب قائل يقول :

الكبراء والامراء عبيدها وأن تكون الصوالج تحت أقدامها ومع هذا فهاهي متجولة بائسة مسلمة الى الجميع ، ياهو بهـا ربان مركب تجارية ثم تجيء وتلقي نفسها بين يدي وهي تعلم انى لست شيئاً »

١١

وليمة الاشرار

من ذا الذى يوفق أن يسمى شخصاً باسمه الحقيقى

(جوت)

لم اشأ ان اظهر فى حياتى الجديدة باسمى بل فضلت ان انتحل اسماافرنجياً ولقد اخذ الطبيب على عاتقه ان يقدمنى للجمهور باعتبار انى محظية افرنجية وفدت للديار المصرية لتعرض فى سوق الفساد جمالها . قد اكون المصرية الوحيدة التى تجرأت ان تنتحل لنفسها اسما افرنجياً

(نوريس) هذا هو الاسم الذى اخترته لنفسي فى حياتى الجديدة وهو اسم بطلة الرواية المسماة بهذا الاسم ، ونوريس فتاة عذراء سلمت نفسها لامير جليل اظهر لها الحب ووعدها بالزواج ، سلمت له نفسها رجاء ان تنقذ والدها من ظلامات السجون وترد له شرفه المفقود فبعد ان خدش الشرف وبعد ان برئت ساحـة الوالد اعرض عنها من وعدها بالزواج ولما ذكرته قال لها : (ايتزوج الرجل خليلته ؟)وتلك هى نفس الجملة التى سطرهاالطبيب فى خطابه لى . فهناك تشابه بينى وبين هذه الفتاة فان انتحلت اسمها اكون قد وفقت لانتحال اسم يطابق التسمية .

أصبحت ادعى الآنسة نوريس وبهذا الاسم دعوت كبار اهل مصر

هذا الميدان بل مقتفية أثرهن فى طريق مهدنه لى فكثيرات منهن سلكن سبيلى فسمين أنفسهم بأسماء تركية وادعين أنهن تركيات كل ذلك ليموهن على أزواجنا وليخدعن بناتنا فيستدرجوهن للعار استدراجا

***

دخلت منزلى الجديد وما استرحت فيه الا القليل حتي تمثلت أمام ناظرى حياة العهر والفساد بشرها وعذابها ، بآلامها وأتراحها ، وتذكرت أن كل الكتاب وصموا هذه الحرفة بما شاء وأو شاءلهم البيان والمنطق وان كان هناك بعض من الكتاب يرثى لحاله البغي ويلتمس لها بعض العذر فذلك قليل نادر ، وأذكر من هذا القليل النادر الكسندر دوماس وجان جاك روسو فقد قال أولهما :

« ان كان لا يحق أن نحب هذا الصنف — يقصد البغايا فلا أقل من أن نشفق عليهن ؛ ونرثى لهن ونقدر ما يألمن منه »

أما روح ما قاله الثانى فروح جديدة لم تكن معروفة قبله وسرعان ما امتدت وتشعبت . فقال يصف دخوله مخدع بغى

« دخلت غرفة بغى فكأنما دخلت معبد الجمال والحب ، وتبدى شخصها لناظرى لابساً ثوب القداسة ولولا هذا الاحترام الذى كان عندى لماأحسست بمثل ما أحسست به أمامنـا وما لبثت حين رفعت الكلفة بيننا وعرفت ثمن جمالها ونوالها حتى أسرعت أريد أن أجنى ثمرها ، خيفة أن تضيع منى . ولكنى شعرت فجـأة بدل النيران التى تأكلني ببرد قاتل ينساب فى عروقى فارتعدت رجلاى وجلست أبكى كأنى طفل

« من ذا يستطيع أن يعرف سبب بكائى وما مر برأسى فى هاته اللحظة؟ انما قلت فى نفسى :

هذا المتاع الذى أصرفه هو أبهى ما أبدعت الطبيعة وأنتج الحب فعقلها وجسمها وكل ما فيها كامل وطيبتها وكرمها يوازيان جمالها ورقتها . يجب أن

١٠

حياتي الجديدة

صدق ما تنبأت به ، فالطبيب يحرضني على الفسق والفجور بعد ان سد كل الطرق في وجهي وبعد ان تحقق أن لا مفر من ذلك فماذا أنا صانعة في هذا الموقف الدقيق ؟ أموافقة له ؟ أم قاضية على نفسي ؟ أن الموافقة أمر لا مفر منه . أما القضاء على النفس العزيزة فلن يكون لان هناك من يضطرني أن أعيش ، هناك ابنتي فيجب أن أعيش لا جاها لأرد عنها الغواة الفاسدين أمثال ذلك النطاسي الماهر ... !

قررت أن أوافق الطبيب على ما اقترحه عليّ فكتبت له الكلمات التالية وعيني تذرف ، ونفسي تتأوه وهاك ما فيه :

القاهرة في ....

سيدي

أنت بادئ فسادي ، وأنت محرضي على خوض لجة العهر ، فان كان ذلك ما تدعو اليه . وان كان ذلك ما يرضي ضميرك ، فأنا له قابلة ولأوامرك منتظرة .

خالدة

ولما تسلم الطبيب كتابي أسرع في الحضور لداري واتفقنا سويا على البرنامج الذي سنسير عليه ووكلته في أمر بيع ممتلكاتي وتصفية الدين ثم كذلك عرض حلي وفراشي للبيع واتفقنا أن يؤجر لي صرحا مفروشاً كان لسيدة أفرنجيه غادرت الديار المصرية ولقد أخذ على عاتقه مهمة القيام بتقديمي لكبار الاسر المصرية والسورية ، واتفقنا أن أسمي نفسي اسما أفرنجيا وأدعي إني افرنجية الاصل ولا يظن القارئ الكريم إني في عملي هذا سابقة للأفرنجيات

أن الجناية الاخيرة جرم فظيع قضى على كل مشروع كنت تفكرين فيه قضي على مهنة التدريس التي كنت تنوين أن تحترفيها ان مات زوجك لأن الاسر كبيرها وصغيرها ، أصبحت الآن تعدك عاهرة فاجرة ولذلك لا تسمح لك بتعليم بناتها لانها تعتقد أنك تساعديهن أن يحذون حذوك في العهر والفساد .

لقد سددت أمامك كل الطرق التي كان يمكن أن تسلكيها ، فلا يوجد الآن أمامك الا طريق واحد ، ذلك طريق المخاللة وأنى مستعد أن أكون خليلا لك ، وان أمهد السبيل لذلك ، فأعرفك بأفراد من كل العناصر على شريطة ان أكون أول المقربين منك . وان يكون لى الحظوة الاولى .

أعرف أن لا مال لديك وانك مدينة واذا بعت كل ما تملكين حتى حليك وأثاث دارك لا يتبقى لك الا مائة أو مائتين من الجنيهات ولذا أستحسن أن تجعلى هذه البقية وقفاً على تربية ابنتك وتعليمها فى احدى الملاجئ لتكون فى معزل عن حياة العهر والفساد

فان صادف حديثى هذا هوى فى نفسك تجدينى مستعداً لتنفيذه

وفى الختام أهديك يا سيدتى خالص التحية والسلام

دكتور حسنى

كنت لاتحبين زوجك إلا ان تربيتك العالية تمنعك ان تخونيه فتطاتى نفسك منه فى هذا الوقت المصيب الذى ضحيت فيه مالك لاجله . كنت اعلم ذلك وأعلم انك اصبحت اما ، فمحال ان تركبي هذا المركب فجئتك من هذا الباب باب الزواج ـ لانى وددت ان استدرجك عقب ذلك لما اطلب .

نجحت الخطة التى رسمتها وسلمت لى نفسى ، والله يعلم أنى بعد تلك الحادثه احتقرت نفسى ، وعددت نفسى جبانا ساقطا ، ولكن هذا الشعور النبيل تبخر بعد قليل من الوقت وعادت الى عواطفى الخبيثة فوجدت أنه من العدل أن أمضى فى فعلتي — قد لا يكون هذا حقاً لكنى اعتقدت انه حق — وعلى ذلك فاعتمادا على هذه النتيجة أفشيت سرك للناس فأكبروك واحتقرونى . نعم أكبروك لانك كنت مثالا للاخلاص أما أنا فكنت مثالا للنذالة والجبن ولكن ذلك كله لم يؤثر فى نفسى بل زدت فى طغيانى فشوهت سمعتك الطاهرة كما سولت لى نفسى أن أفعل ، فحدثت كل من أعرف ومن لا أعرف عنك حتي أصبحت مضغة فى الافواه ، يتحدث بسيرتك الناس فى المشارب والمنتديات والاسر ، فى المنازل والقصور ، لا فى القاهرة فحسب بل فى القرى والمدن .

عرضت بعد ذلك نفسك علىَّ ورجوتينى ان أمد يدى فأصافح يدك الكريمة . كم كنت أود ان أعمل ذلك يوم وفاة الصديق العزيز ولكنى لم أشأ أو بالاحرى لم تشأ نفسى الخبيثة ، وكان المحرض لى على ذلك المثل القائل « أيتزوج الرجل خليلته » ذلك هو السبب الذى منعنى أن أتزوجك فى ذلك الظرف الدقيق وهو ما يمنعنى اليوم أن أقوم به مع انى لو قمت لكنت جديرا بالاحترام والاكبار ، لا منك فحسب لكن من الناس أجمعين .

ولكنها الكبرياء والعظمة المستوليتان على قاتلهما الله من صفتان مشينتان لقد جنيت عليك جناية كبرى ، لا بل جنيت عليك جنايتين : جناية سلب عفافك ، وجناية التحدث عن شرفك وطهارتك ووصمك الوصمات الشنيعة فى المشارب والمجتمعات

هذا مايجول فى خاطرى الآن تقدمت به اليك وكلى أمل أن يصادف منك صدرا رحباً .

وتجدنى فى انتظار ماتأمر به فألبيه على العجل

وتفضل ياسيدى النطاسى بقبول خالص تحياتى والسلام ؟

المخلصة

(خالدة)

ولما انتهت من كتابة الكتاب وجدت أن أحسن طريق لايصال هذا الخطاب هو ان تحمله وصيفتى له فى منزله وتنتظر منه رده

بعد مضى اكثر من ساعتين رجعت وصيفتي تحمل لي رد الخطاب وهاك مافيه

القاهرة فى ....

حضرة السيدة المحترمة

اهديك سلامي واحترامى وبعد

الساعة تلقيت بمزيد الاحترام والاجلال خطابك الكريم ولقد قرأته بامعان مرة واثنتين وثلاث مرات وذلك كله لافهم كل مافيه

استطعت أن افهم انك بعد ان انبتينى وبعد ان عددت الظروف التى مرت بك تطلبين منى أن أصبح زوجا لك ثم بعدذلك تطلبين مني ان اقبلك كزوجة ثم تذهبين ان ذلك واجب على

قد يكون على هذا الكلام مسحة من الحق وقد يكون حقاً كما تقولين انه يجب على ان اتزوجك

لقد احببتك ياسيدتى العزيزة ، وكنت مجنونا بحبك ولكن ذلك الحب حب شهواني ، لان حب التمتع بك كان مستوليا فطلبت منك فى ذلك اليوم ان تكونى لي زوجة وكنت جد واثق انك لن تقبلى ذلك لانى اعلم انك وان

كنت أستطيع ذلك . لكنى نظرت من وجهة أخرى فوجدت أن هذا العمل يشين سمعتى ان لم يصمنى بالخيانة ـ ظاهرا لا باطناً ـ ففضلت تضحية نفسى لانقذ حياته .

تعلم أنك أنت الشخص الوحيد الذى استطعت أن تتغلب على ارادتى وتعلم أنه لولا المركز الدقيق الذى كنت فيه لما استطعت ذلك . فان أنا عرضت نفسى اليوم عليك وقدمت نفسى لك كحليلة فأنا لم أفعل ذلك الا لان الظروف تضطرنى أن أركب هذا المركب .

كنت الشخص الوحيد الذى سلمت نفسى اليه ـ ذلك طبعاً بعد زوجى ـ ومنذ ذلك اليوم لم يقربنى زوجى ....

فان كنت جاد فيما تقول وترغب أن تكون لى زوجا فثق انى فى هذه اللحظة كما كنت يوم الحادثة المشئومة

أعرضت عن الزواج بك فى ذلك الوقت أما اليوم فأطلبه منك ، أطلبه منك لان ذلك أمر لابد منه ولأن الواجب يقضي على أن أطلبه لاصون شرفى وشرف ابنتى

لاأطلبه اليوم منك فحسب بل أرجوك أن نقبله ، أرجوك أن تقبله لانك كنت الدافع لى أن أخون زوجى ، أرجوك أن تقبله لانى أودن احيا لاجل ابنتى طاهرة عفيفة ، أرجوك ان تقبله لالانى أحبك فأود أن أتزوجك . بل لان ذلك واجب عليك فأعمله .

فان كنت لم تبح بسرى لاحد فى أحد مجالس شرابك ـ لأن عهدى بك ثرثار ـ فامدد يدك قابل بها يدى الممتدة وصافحنى وارتض بى زوجة . أكون لك نعم الرفيقة فأصون مالك وتكون قد أسرتنى بمعروفك .

وان كان لسانك قد خانك فبحت بما حدث بيننا . فتقدمك فى هذا الوقت يكون أشرف وأوجب . وفعلتك تكون اوقع فى النفس .

رذيلة بين الأنام سأكون بغيا فاجرة أعذب من عذبنى وأنتقم ممن مهد لى السبيل سوف أكون ......

انتصار الرذيلة

رأيت اليوم أن أكتب للطبيب الفاجر الكتاب التالى أحدثه فيه عن نفسى وأطلب منه هو الآخر الأفصاح عما ينوى

القاهرة فى .....

سيدى الطبيب

تهديك أرملة حزينة سلامها وترفع اليك تحياتها وبعد.

لجأت اليوم للقلم لأخط لك ما كنت أود أن القيه على مسامعك بنفسى، لانى شعرت أن لسانى قد يخوننى فى الافصاح عما أريد .

قلت أيها السيد فى المقابلة الاخيرة بيننا أنك تحبنى جد الحب وأن صورتى تركت فى نفسك عندما شاهدتنى لاول مرة أثرا كبيرا تغلغل شغاف قلبك فجمالك تهيم فى أودية الخيال وأن سعادتك تتوقف على كلمة واحدة تخرج من بين شفتى

حرضتنى بعد ذلك أن اطلق نفسى من زوجى بعد شهرين من شفائه ولكنى فى ذلك اليوم لم أشارك زوجى بل فضلت خيانة عهود الزوجية لانقذ زوجى وابنتى

حدثتنى أنك كنت تحل زوجى وتحبه ، وأنك كنت تخلص له وتعده كابنك وهو الآخر كان يشاركك الاخلاص فاعتمادا على ذلك كتبت لك هذا الكتاب أحدثك فيه عن نفسى وعن ما أرجوه منك .

تعلم ياسيدى انى وان كنت لا أحب زوجى الا أنى كنت أخلص له كل الاخلاص ، وأرعى عهود الزوجية ولذلك لم أبح لنفسى تطليقه مع انى

ـ اتري ياسيدى كيف انه أصبح لا يرجى منه نفعاً ؟

ـ ان الصدمة أثرت عليه فأصبح لايذكر شيئاً من ماضيه

وما العمل ؟

ـ لاأمل فى شفائه . ومع كل فسأستشير فى أمره جماعة من كبار اطباء الاجانب الذين وفدوا قريبا لمصر .

ـ أنى أضرع اليك أن تبذل جهدك لشفائه . أبذل كل ماتستطيع لتشفيه لقد ضحيت من أجله بكل شيء وسأضحى بما تطلبه حياته من التضحيات مهما عظمت

ـ سوف أبذل جهدى فى ذلك . والآن أستأذنك فى الذهاب

ـ اذهب صحبتك السلامة ولتكن مسألة زوجى أولى مهامك

***

استشرت أكثر الاطباء فقرر الجميع أن لارجاء فى شفائه بل أن ساعته حانت فلا ينفع فيه طب ولا دواء وسوف يسلم الروح فى احدى نوباته دون أن يتألم ألما جديداً .

***

نفذت إرادة الله فى زوجي صباح يوم الاثنين عاشر ابريل ... فأصبحت بذلك وحيدة فى هذا العالم .

لم أربدا من الكتابة للطبيب والتضرع اليه وعرض نفسى عليه ليتخذنى زوجة . فان فعل أكون سعيدة .

انى لاأحب الطبيب ولكن زواجى به لابد منه . سأكون له زوجة وسأبذل جهدى لاجعله يقبل فان رفض .... ان رفض طلبتى وكان لايزال حافظاً لسرى فسأحترف مهنة التدريس فى البيوت الكبيرة ، أحترف هذه المهنة لأعول ابنتى ونفسى ، فان كان قد أفشى سرى وتحدث بما كان ومالم يكن ففى هذا الوقت ، وفى هذا الوقت فقط سأكون نذيرة فساد رسولة

تذكرني ؟

ـ لا أذكر أني تزوجت

ـ ألا تذكر شيئاً عن ماضيك ؟

ـ لِمَ أذكره ؟

ـ لأني أريد أن أعرف شيئا عنه

ـ آسف اني لا أذكر شيئاً

ـ ألا تذكر والدتك ؟

ـ والدتي ! والدتي ! لا أذكرها ....

ـ دعني أذكرك قليلا ! قليلا !

— والدك الضابط الذي .....

— والدي ، والدي .... لا أذكر شيئاً

— ألا تذكر السيد الجالس أمامنا ؟

— السيد ... ! السيد الجالس أمامنا ، الطبيب الذي يعالجني ، أراه ضحية وعشية

— الا تذكر شيئاً آخر عنه ؟

— أذكر ..... أذكر ..... لا أذكر شيئاً

ـ ألا تذكر انك كنت تتردد على نادي ....

ـ أتردد .... ، أتردد على نادي .... ، لا أذكر ...

ـ حسناً لندع الماضي . ولتعرف أن هذه ابنتك وأنا زوجتك والسيد الجالس أمامنا صديقك وطبيبك

ـ أذاهب لتنام ؟

ـ نعم .

ـ اذهب صحبتك السلامة

ولما قام وجهت خطابي للطبيب قائلة :ـ

أراد أن يسلب عفتي ويهتك عرضي فاستمعت له ، استمعت له لانى لم أجد مفراً من ذلك . لان نفسه الخبيثة شاءت أن يكون تسليم نفسي ثمناً لعلمه !. وهكذا أصبحت الصناعات تجارة مزريه بالشرف ، وهكذا أصبح بعض السادة الاطباء يسنون قوانين جديدة للمرضى ، ويفرضون تنفيذها اماطوعاً أوكرهاً تناقض القوانين التي يسنونها ، العهود التى قطعوها على أنفسهم في بدء حياتهم تباين الاقسام التى أقسموها عند تسليمهم اجازة تعاطى هـذه المهنة ، مهنتهم من أشرف المهن ان لم تكن أشرفها ، لكن الشهوانيين منهم شوهوها لانهم لا يخدمون المرضى لكنهم يخدمون مصالحهم الشخصية ، فان جاء من باب خدمة مصالحهم الشخصية خدمة المرضى عملوا الواجب عليهم .

***

تماثل زوجي للشفاء لكنه كما قدمت أصبح لا يرجى منه نفعاً ، وكثيراً ما كنت أحاول أن أذكره بالماضي لكن عبثاً حاولت . واليك بعضاً من حديث تجاذبناه ثالث يوم تماثله للشفاء وكان بحضرة الطبيب (الكريم) ، وكنت أحمل طفلتي بين يدى وزوجي جوارى والطبيب على مقربة منا .

ابتدأت الحديث فقلت :

— أترى كيف أصبحت ابنتنا جميلة ؟

— حقاً أنها ابنة جميلة فلمن تنتسب ؟

— هى ابنتى وابنتك ؟

ـ أأنت زوجتي ؟

ـ ومن كنت تظنني ؟

ـ كنت أظنك قريبة لي .

ـ أنا قريبة لك ؟

ـ نعم قريبتى

ـ لا لست قريبة لك فقط بل أقرب النـاس اليك . انى زوجتك ألا

٨

الوفاة

قضت الارادة الالهية أن تنجح العملية الجراحيـة . ولكن الله الذى شاء نجاحها لم يشأ — لحكمة أجهلها — منح زوجي الشفاء . فأصبح لا حياً يرجى ولا ميتاً ينعى . فقد شعوره ونسى كل ما حوله نسي ماضيه . نسى زوجته وابنته فأصبحت فى نظره كالغريبة عنه لا كأقرب مخلوق اليه. أما ابنته الوحيدة فكان لا ينظر اليها النظرات الأبوية التى تذيب قلب الجماد . وليت الامر وقف عند هذا الحد فحسب بل تعداه لنوبات متقطعة كانت تعتريه أكثر الاوقات وأصبحت تلك النوبات صديقة ملازمة له ويالها من صديقة يعاف الانسان مصاحبتها .

شاء القدر أن تكون التضحيات التى أقدمها لا تثمن . فالتضحية المادية التى تستنزف كل اموالى وامواله حتى حلاى واثاث منزلى ، التى تصيرنا فقراء بعد ان كنا اغنياء وتصير ابنتى التى لا تزال في المهد لا تملك لا قليلا ولا كثيرا التضحية المادية التى تنقلنى من الغنى للفقر من القصر للكوخ . من السعادة للشقاء . التى لم اعتدها حتى اليوم والتى سأقاسى كثيرا حتى اتعود عليها ، تلك التضحية قبلت تقديمها بكل سرور . اما التضحية الادبيـة ، التضحية التى لا تثمن ، التضحية التى تنقلني من حياة الطهر لحيـاة العهر ، وتصم شرفى بوصمة العار وتضطرنى ان احنث بالعهود التى قطعتها على نفسى يوم عقد القران وتقضى على شرف ابنتى التى لم تجن ذنباً تستحق عليه هذا العقاب الصارم ، وتقضى على شرف زوجي الذى يظنني حتى الآن راعية لعهده ، محافظة على عرضه وعرضى ، احجمت عن تقديمها بادئ بدء لكنى بعد ذلك لم ار بدا من تقديم نفسى على مذبح الشهوة ، كما اراد الطبيب ...

لا ! لا ! ان هو الا اعجاب فحسب كيف، ما يمكن لى ان احب الدكتور يوماً ما .

لم ادر اذ ذاك ان ما اختمر فى نفسى من عواعل الاعجاب به ، كانت نواة محبة صحيحة ، ظهرت على اثر توسلاته ودموعه وآلامه التى سكبها عند قدمي ذلك اليوم المشئوم.

المرأة الضعيفة ، المرأة العاجزة ، المرأة المسكينة، لم تستطع أخيراً أن تثبت فى نضالها وأن تجاهد حتى النهاية

نظراته الفاتكة هي التى أودت بشرفى فى تلك الساعة ، لانها كانت سهاماً مسددة نحوى فى ساعة عجزى فأسرتني فأصبحت ذليلة ويا للعار .

بك أنت فقط ، ففى يدك خلاص نفسى وفى يدك سعادتى وشقائى

هاقد أصبح زوجك لايرجى منه نفع على ان شفاءه ونجاته تتوقف على كلمة واحدة تخرج من بين شفتيك

أنا لاأملك شيئاً من حطام هذه الدنيا الا أزلي صناعة نافعة أستطيع أن أعيش بها بهناء ورغد ويحيا بجانبي كذلك من أبسط عليه يد حمايتي

قد أفضيت اليك بمجمل ماتنطوى عليه جوانحى وعزمت على أن لاأبادر بتطبيب زوجك وانقاذه من مخالب الموت الا بشرط واحد . هو أن تكونى لى اماخليلة أو حليلة . فأن قبلت أن تكونى زوجتى فلا أيسر من ذلك لانك تستطيعين أن تطلقى نفسك منه بعد شهرين من شفائه حيث أن عصمتك في يدك أما اذا كان هناك مايمنعك من ذلك فلا أقل من أن تقبلى الشطر الاول

عند ذلك علتنى سورة الغضب ولم أتمالك من الصياح فى وجهه

وأذكر أنى كنت ساعتئذ جافة شديدة اللهجة ، سليطة اللسان، استعملت فى تأنيبه وتعنيفه قارص الكلام ، وشديد التوبيخ إلا أنه ظل مكابرا مجاهدا تارة يوعدنى وأخرى يتوعدنى وهو من حين لآخر يتذلل الي ويجثو عند قدمى يشرح لى مكنون فؤاده ولواعج غرامه ويحاول أن يستميلنى بألفاظه العذبة ، وأمانيه المعسولة ، إلا أنى ظللت إزاء توسلاته جامدة كالصخرة التى لاتتزعزع من مكانها ولكن الى متى ؟

لكل شيء حد يقف الانسان عنده ولكل أمر غاية ينتهي اليها، والمرأة مهما أخذت من قوة وجلد أمام الرجل ، فهى ضعيفة عاجزة عن صد هجماته فى أوقات ضعفها .

وهنا يجدر بى أن أعترف لقرائى بأننى كنت أشفق عليه فى بعض الاحيان وانظر الى نور الشباب المترقرق فى وجهه وشعلة الذكاء المضيئة فى عينه فتأخذني رجفة من راسى حتى اخمص قدمى ويستولى على شعور غريب وتتبطن نفسيتى، بمنازعات واحساسات مختلفة ، أرفع على اثرها رأسها فأقول :

وفعلا تم ذلك وخسر زوجك كل ماله ثم اختلى بنفسه وأطلق المسدس على رأسه خلف الاذن . فأسرعت اليه واستطعت بمساعدة الاطباء أن أقلل النزيف ولكن فضلا عن الاجراءات العديدة التى اتخذتها الجمعية التى اجتمعت لهذا الغرض قررت بالاجماع انتظار قطع النزيف وبعد ذلك أباشر عمل العمليه الجراحية الخطرة التى أخذت على عاتقى وحدى عبء نجاحها

ذلك موجز عما حدث ياسيدتي ولكن لى بعد ذلك حديثاً طويلا أوجهه اليك

تعلمين أيتها السيدة أن زوجك قد استنزف القمار أكثر أمواله فى الشهر الفائت فقد كان يبذر كثيرا ويصرف من غير حساب حتى أنه كان ينفق يومياً أكثر من خمسين جنيهاً . أما مجموعة أصدقائه فكانت من أردأ الناس طباعاً فأوقعوه فى مشاكل عديدة ثم أنفضوا من حوله بعد وقوعه فى الكارثة ولو قابلوه الآن فى الطريق لصرفوا وجوههم عنه . لايكلفوا أنفسهم حتى مشقة تحيته ولم يبق له من أصدقائه سواى والمهندس . أما أنا فاعتبر نفسى أكبر من صديق فهو بمثابة أخي الصغير او ولدى العزيز ولا ادرى كيف يكون مصيركما — أنت والطفلة — وقد بلغتما هذه الحالة من الفقر ، كان الامر هينا لو أن زوجك أتم تعليمه وكان قادرا على مزاولة عمل يقيكما شر الفاقة ولكنك تعلمين أنه ليس كذلك

وكم تكون حياة أمثاله المتعودين الرفاهية ، شقية مضطربة ؟ انى كنت من المخلصين الناصحين ولكنه لم يعرنى سمعه وقد أخذت على عاتقى أجراء العملية — على خطورتها — التى تخلى عن مسئوليتها بقية زملائى من الاطباء الذين اجتمعوا لهذا الغرض ولم لك فى نفسى من الحرمة والاحترام قبات هذا الامر الشاق

أنى أجلك لحد العبادة وقد تركت صورتك فى نفسي عند ماشاهدتك لاول مرة أثرا كبيرا تغلغل فلبى وجعلنى أهيم فى أودية الخيال فلا أحلم الا

فان سفهنا آراءكم ودحضنا مزاعمكم قلتم أننا اميون لم نتعلم ونترب . فان قلنا ان زهرة ابنائنا في كلياتكم وجامعاتكم الدراسية . وان كثيراً منهم حاز قصب السبق على اهل وطنكم انفسهم . قلتم : هذا يحتاج الى برهان أو ادعيتم ان من يفوز لا يكون مصريا بل اوربيا — اى تركيا — وان اثبتنا لكم بالبراهين الدامغة انهم مصريون عريقون فى المصرية رميتمونا بالتعصب الدينى فان أثبتنا لكم دماثة أخلاقنا ووداعتنا ومسالمتنا للأجانب وبعدنا عن التحيز وإكرامنا للضيف . قلتم قد يكون ذلك لكننا لا نسلم به ولكن عقلاءكم أنفسهم لا يسلمون بما تدعون من الكذب والبهتان

ـ عفواً ياسيدى ما كنت أقصد ان أسبب لك هذه الاساءة لأنى ظننتك تركيا وعهدى بالتركي يزدرى المصرى

ـ فرية اخرى تصمون بها التركي واحتقاراً آخر تحتقرون به المصرى ألا فاعلم أن هذا خطأ فالتركى يحترم المصرى والمصرى يبجل التركى وقد عاشا سوياً أجيالا عديدة

أردت أن أضع حدا لهذا الحديث المملوء شجونا على مصرنا العزيزة فقاطعت حديثهما قائلا — لاسيما وقد لاحظت أن زوجك ملكته ثورة الغضب — هيا بنا نيمم مائدة القمار فان الجمع قد انتظم

لاحظت ابتسامة ازدراء ارتسمت على وجه الأجنبي . لم أعرها وقتها شيئاً من الاهتمام لكنى فكرت فيها كثيرا بعد ذلك ، فاستطعت التكهن أن هذا الحديث المشجون ماهو الاحملة مدبرة لايقاع زوجك فى شرك نصبه له جمعية لصوص من الأجانب اللابسة ملابس الاشراف

ذهبنا للمائدة الخضراء وياليتنا لم نيمم ناحيتها لأن ذلك الافرنجى كان رئيس جمعية من لصوص أجانب تريد الايقاع بزوجك فكلفت هذا الرجل الذي تعرف بزوجك من زمن وجيز إهاجة عواطفه لانها علمت أنه عصبى المزاج ولأنها وثقت أنها بهذه اللعبة تستطيع الاستيلاء على ماله من طريق شريف

فوق آلامي

— ذلك ما سوف أتحاشاه

— لا عدمتك من صديق مخلص

— يممت مع زوجك عصر اليوم المشئوم نادى . . . وبعد ان استرحنا قليلا حضر أحد أصدقاء زوجك من الافرنج وفاتحة الحديث فقال :

— هل يسمح السيد أن يلعب معي دور بلياردو

— ولما جبل عليه زوجك من كرم الطباع ولأن السيد الأجنبي تشرف بمعرفته قريباً لم يجد بداً من اجابته لطلبه

— ذهبا لقاعة البلياردو وبعد أن لعبا دورين تجاذبا أطراف الحديث وكنت أسمع حديثهما عن كثب فسمعت الحوار التالى الذى ابتدأه الافرنجي

— هل السيد مصرى أم تركي ؟

— قبل ان أجاوبك على سؤالك اسمح لي ان أوجه لك سؤالاً آخر

— ما السبب الذى جعلك تظننى تركيا ولست مصريا مع أن ملامحى تدل على أننى مصرى ؟

— أظنك خاطئاً يا سيدى لأنى لا أظن أن هناك مصريين بهذا الجمال . لاننا نسمع ونقرأ ان المصريين أناس يضرب لونهم للسمرة التى تكاد تكون قريبة من السواء . فضلاً عن ان أخلاقهم ليست وديعة فهم يكرهون الأجنبي مهما كان ومهما كانت وداعته

— اعلم أيها السيد الأجنبي الكريم انى مصرى صميم ، عريق فى المصرية منذ القدم . واسرتى معروفة منذ عهد بعيد بتأهيلها للغريب وحسن معاملتها للأجانب فهى مثال الوداعة والتسامح ، لله أنتم معشر الغربيين لا تزالون تصموننا بالعيوب وتتهموننا بالتهم الشنيعة . فأحيانا تمثلوننا كزنوج افريقيا حفاة عراة الاقدام لا يستر جسمنا الا قطعة من القماش صغيرة فاذا رددنا هذه التهمة وأثبتنا اننا متمدينون ادعيتم باطلا اننا نسكن اكواخا من القش والبوص

٧

فوق مذبح الشهوة

يذكر القارئ ذلك الطبيب الذى نوهت بنبوغه وعلمه . صديق زوجى
ولقد ساقته العناية الالهية ليأخذ بيدى عند الولادة فلولاه لكنت فى عداد
الاموات . فبمهارته وعلمه استطاع ان ينشلنى من الموت فوضعت الطفلة سالمة
وفى صباح اليوم التالى سألت عنه فقيل لى .

— لم يحضر بعد لكن حضوره منتظر بين آونة وأخرى

وبعد ان انتظرت بضع دقائق اعلمتني الخادمة بقدومه ولما دخل علىّ
قال لى :

— أسعدت السيدة صباحاً . وآمل أن تكون فى صحة جيدة

— هذا مالا أظنه ما دام زوجى مريضاً . حياته مهددة بين آونة وأخرى
بالزوال

— لتخلد السيدة للطمأنينة ولتلتزم السكينة . فانى أود أن ألقى على مسامعها
شيئاً عن الكارثة الأليمة . ثم استطرد بعد الاجراءات التى اتخذتها وقت
حدوثها وبعد ذلك أعدد ما يتبع ثم اعرج على الضمانات التى يجب أن تؤخذ
حتى يمن الله عليه بالشفاء

— تفضل بالكلام فكلى آذان صاغية . اسرد ما شئت . وليكن كلامك
صريحاً

— هذه هى خطتى على الدوام

— شكراً لك يا سيدى النطاسى . وآمل ألا تسبب لى قصتك آلاماً

الفساد بفساد أعم ، وأهتف هذا هو الناموس ، وأغالب الجريمة بجريمة أكبر وأصرح هذا هو العدل.

وقفت أتفكر فانهمرت الدمعة من عيني واجبتها في الحال :

— الشريعة التي تعلم الفساد فاسدة ، والناموس الذي ينشر الشر شرير ، والعدل الذي يدعو للجرم مجرم.

ثم تقدمت الثانية نحوي وقالت لي بصوت رقيق خافت :

— أما أنا فان قبلت نصيحتي وسرت في الطريق التي أرسمها لك أصبحت فاضلا كريماً تجد السعادة والراحة في العمل

فسألتها من أنت ومن تكونين ؟

قالت :

— أنا الآخرة أقابل السيئة بالحسنى ، وأقول هـذا هو الدين . وأقابل الخيانة بالأمانة ، وأقول هذه هي الرحمة . وأغالب مشتهيات النفس بالقناعة ، وأصرح هذه الحياة .

وقفت أتفكر فانبلجت الابتسامة من شفتي وأجبتها في الحال :

— الدين الذي يعلم الخير خير . والرحمة التي تنشر الامانة أمن . والحياة التي تدعو للقناعة حياة قناعة .

ثم سكن الليل وأطفئت السرج فعدت الى المدينة وانا اقول في نفسي لقد اكتشفت سر الحياة »

أنا هى الحياة ! أنا جميلة فتانة ! تعال الىّ أيهـا الانسان تصبح سعيدا ! تعال الىّ فأهبك اللذة والهوى ، وتصبح عشيقى فأحبك ، فاغتنم السعادة .. تعال الىّ ... وهنا ينفتح ثغرها بالابتسامة اللؤلؤية وما أحقر اللؤلؤ حين يقاس بلؤلؤ أسنانها العجيب وما أشد ما يفتتن الانسان بجمالها الباهر

أشعر انى أخطو اليها بضع خطوات ولـكنى أتردد وأرفع طرفى فأرى عينيها المتوهجتين بالالغاز . أصبحتا تتوهجان كالنار المحرقة فما كاد أخر عند قدمي هذه الغادة الالهيه قائلا لها :

أحبك أيتها الحسناء ... لـكن ... لا أبالى ... ها أنا آت اليك أريد أن أتناسى وأكف عن الاستذكار

ولـكن ملامحها تأخذ فى الاكمداد فأرى عوض ثغر الحسناء المبتسم جمجمة تـكشر عن أسنانها تتهـادى على هيكل من عظام واهية فأهرب مرتاعاً من تلك الجثة الرهيبة وأقع على الارض خائر القوى فيتصل بسمعى مع الروائح الـكريهة صوت لطيف يقول :

— تعال الىّ يا ابن الموت ، أنا جميلة وأنا أهواك »

أليست تلك هى الحياة ؟ أم أخطأت تصورها ؟! أما سر الحياة فلم أوفق اليه ولعل أناتول فرانس وفق لاكتشاف هذا السر عند ما قال :

« خرجت من المدينة وسرت الى الحقول فرأيت بالقرب من تلك السنديانة القديمة فتاتين جميلتين مقبلتين علىّ فتقدمت احـداهما الىّ وقالت لى بصوت شجى عذب :

« ان قبلت نصيحتى يا هذا ، وسرت فى الطريق التى أرسمها لك أصبحت غنياً كبيراً لا تشعر بهم ، ولا تتأثر بألم

فسألتها من أنت ومن تكونين ؟

قالت :

— أنا الدنيا أقابل الشر بشر أعظم ، وأقول هذه هى الشريعة ، وأقابل

٦

سر الحياة

بين الابتسامة والألم رزقت طفلة زادت من هيجان نفسى ، ومرارة التفكير فى مستقبل أمرى وأمرها ولما رفعت رأسى من الوسادة لأراها ولأقرأ الشقاء فى أسارير وجهها ، شعرت أن الحياة جميلة بمرآها فصببت كل ما فى نفسي من العواطف المخزونة فوق ذلك الرأس الاصلع الصغير . شعرت أن الحياة بسمت لها وضحكت ، وقت أن بكت لى وأحزنتنى. ولكن بالرغم من ذلك شعرت أن شمس حياتى تشرق من ثغرها وسعادتى تتدفق من بين أصابعها الصغيرة . ولكن وا أسفاه ! هناك سحاب ملبد بالغيوم فى جو حياتها الجديدة ذلك هو المستقبل الرهيب

ما هي الحياة ؟ ولم يخلق ابن آدم ؟ أيخلق ليتعذب ويشقى أم لينعم ويسعد أسئلة عويصة تختلف أجوبتها

« فالحياة تتمثل أمامي كالمرآة الجميلة أو كالامل السرى ، أو كالوحى الالهى مجلببة بالضباب الشفاف وذلك الضباب هو فكرى الأثيم يعكر عينى فلا أستطيع أن أستجلى محاسنها

إنى أشعر بألم وضيق وأروم الاقتراب منها لأسألها من هى ؟ ومن تهوى ؟ ومن يستطيع أن يحبها ؟ وأريد أن أقول لها أشياء كثيرة سوى ذلك ولكن الرهبة تمنعنى وتختم شفتى بطابع السكوت فلا أستطيع سوى اغماض عيني لأنها لا تقوى على احتمال مرآى هذا الجمال المحرق

اسمع صوتاً رهيباً كالعاصفة ، لطيفاً كالأناشيد أولحب ، هائجاً كموجة بحر لا شاطىء له . . . أسمع صوتها فتجذبنى اليها ، بيد أن سمعى يستخلص منه اللعنات ولكن الصوت يرن فى أذنى كالقيثارة قائلا :

جراء رصاص أطلقه على نفسه ، لأنى عهدت المسدس لا يفارقه لحظة واحدة

ارتميت على الأرض فاقدة الصواب . وما رجع الى رشدى حتى وجدت نفسي بين ذراعى الطبيب ومعه الخادم والوصيفة يحاولون ايقاظى وكانت أول جملة فهت بها :

ـ أقتل أم لايزال على قيد الحياة ؟

أجابنى الطبيب مطمئنا :

ـ هدئى روعك واحتملى المصيبة بصبر جميل فهو ان لم يمت فحالته تنذر بالخطر ولكن هناك أملا لانقاذه باجراء عملية جراحية خطرة جئت أستشيرك فى أمرها .

ـ ولم أطلق الرصاص على نفسه ؟

ـ لأنه قامر فخسر أموالا تربو على مايملك

ـ أخسر كل مانملك ويزيد ؟

ـ أقصد ما يملك هو ويزيد

ـ وكم قدرت خسائره فى هذه الليلة المشئومة ؟

ـ تربو على الثلاثين ألفا من الجنيهات ! !

ـ ثلاثون ألفا ؟ أم ثلاثة آلاف ؟ أم عشرة ؟

ـ لا بل تزيد عن الثلاثين .

ـ أواه يا ربى ! ثلاثون ألفاً من الجنيهات ! أى لو بعنا كل مانملك لم يتبق لدينا الا بضع مئات منها ، آه يا ربى ما هذه المصائب التى تتوالى على إنى أشعر أن المخاض ينذرني بقدوم طفل سيسجل عليه البؤس والشقاء من يوم مولده حتى يوم يبعثون .

كم فيك أيها الليل من عابد متعبد يقوم فى محرابه متهجدا وقـد عفت نفسه الدنيا وما فيها وسمت لدار الخلود يناجى ربه من كل قلبه قائلا :

(رب أن الخطايا قـد أثقلت ظهرى وتركت فى قلبى جرحاً دامياً ، وقد تبت اليك يا الهى فعسى أن تخف بالتوبة أوجاعى ، وتندمل جراح قلبي)

فتصعد هذه النجوى من قرارة نفسه الى حيث تلامس السماء ثم يعود بعد مناجاته فيستغرق فى تأملة العميق .

أيها الليل ! كم تحت أستارك من فتاة بائسة ذات نفس أسيفة وكبد مصدوعة على قومها الذاهبين وأهلها الهالكين ؟ كم فيك أيهـا الليل من فتى حيل بينه وبين ما يشتهى ووقفت به آماله على شفا اليأس فكان من الخاسرين؟ لا يعرفك أيها الليل ألا من جمع بين طرفيك ساهرا متململا يرى عجائبك ويرعي كواكبك يزورك القمر فتشرق له أرجاؤك كما تشرق القلوب بنور الأمل . كم في جنحك أيها الليل من خليع مستهتر يحرق فحمتك بين بغى يداعبها وكأس يحتسيها ومائدة قمار جلس اليها ثم يؤوب سكرانا طافحا خالى الرأس فارغ الجيب ؟

ليت شعرى لماذا يتخذك الناس أيها الليل مسرحا للهوهم ولعبهم وفجورهم وتهتكهم ، حيث يمثلون روايات آثامهم وراء سطورك ولا يجدون لذتهم الا تحت لوائك . وما هذه اللذائذ التى يتمتعون بها الا طيف خيال لاحقيقة له ولكنهم يغالطون أنفسهم ويعنونها عند بزوغ الشمس المشرقة والضوء الساطع حتى اذا أدبر النهار حولوا هذه الخيالات لليل ، حيث يصورون لأنفسهم من الأوهام مالا يكون وما لا تدركه الظنون ؟ »

وبعد أن انتهيت من مناجاة نفسى زار جفنى سنة من نوم خفيف ولكنى أستيقظت خائفة وجلة على أثر طرق شديد بالباب ولما فتحت الباب وجدت القادمة وصيفتى ورأيتها ترتعد خوفا وتحاول أن تتكلم فلا تستطيع ، نظرة واحدة ألقيتها على وجه الفتاة الأصفر الممتقع فهمت منها ماذا جرى تكهنت اما أن يكون زوجى قد قضي نحبه منتحراً أوهو فى خطر الموت من

من هذه التضحيات ولا تزال الحوادث تتكرر بيننا حتى الآن .

ولما كانت هذه الصناعة شريفة وجب أن محترفها شريفاً طاهراً لا يميل للفسق ولا للشهوات ، يستطيع أن يكبح جماح نفسه فان لم يكن كذلك غدا شيطاناً رجيما فهل كل الاطباء كذلك ؟ أظن لا بل أوكد أن كثيراً منهم لا يحبون الا أنفسهم ولا يخدمون الا مصالحهم الشخصية ، ومن باب خدمة مصالحهم يخدمون المرضي ، أليس كذلك !؟!

٥

الهاوية

« انتصف الليل أوكاد ، وقل مرور العربات ، وأخذت تهدأ أصوات المتحركات ، وانقطع سير القطارات الكهربائية وخلت الطرقات من الغادين والرائحين اللهم الا القليل ، وكان المطر ينهمل بشده ، وعابرو الطرق يسرعون فى مشيتهم اتقاء المطر المنهمر وأما أنا فكنت أنتظر رجوع زوجى من ناديه الذى يؤمه وكنت قلقة عليه شديدة الخوف لانه خرج من الصباح ولم يرجع حتى الآن

دقت الساعة اثنتين ثم أعقبتهما الثالثة ولم يحضر بعلى بعد. فانتابتنى المخاوف والهواجس . وأخذ قلبي يحدثنى بوقوع مصيبة عظيمة ستقضي على بعض تلك السعادة التى كنت أشعر بها واتفيأ ظلالها . أجل لم أكن سعيدة كما يجب ولم أنل من الهناء القسط الأوفر ، ولكنى مع ذلك كنت مغتبطة أشعر بقليل من السعادة الممزوجة بالحزن وكنت قانعة راضية .

« أخذت أناجى الليل الذى يسكن فيه الخلى ، لأنه يجمع بينه وبين مسراته ولذائذه ويأنس به الشجي لانه يفضي اليه بلوعته ويبثه لواعجه وآلامه

يزيد عن الستين جنيهاً . وهو وان كان هادئ النفس ساكنها وديعاً لطيفاً الا أنه عند ما يشرب الخمر التى يعبدها ينقلب شيطاناً رجيما

لقد يعترض علىّ البعض فيقول :

لم تسهب هـذه المرأة وتطيل فى وصف ذلك الطبيب الماهر وتوجز فى وصف ذلك المهندس الحاذق ؟ ألا يوجـد هناك دافع دفعها أن تركب هذا المركب ؟ ألا توجد أسباب حتمت عليها أن تطنب هذا الاطناب ؟

أجل أيها المعترض الكريم هناك أسباب ودواعى ، تضطرنى أن أسهب وأطنب ولو استطعت لسطرت عنه كتاباً خاصاً به يحلل شخصيته ويصفها حق الوصف . أجل أيها القارئ الكريم لقد كان ذلك الرجل الوحشى والداهية العظيم سبباً فى نقلى من حياة الطهر لحياة العهر . لقـد أظهر لي أولا صداقة متينة واخلاصاً وطيداً واحتراماً كبيراً ، ولـكن ظهر لى بعد ذلك انى ضحيت من أجل زوجى بأثمن ما أملك ، ضحيت من أجله بعرضى وشرفى ومركزى وسمعتى وسمعة ابنتى التى قضى عليهـا أن تعيش لاتعرف لها أبا لانه توفى . ولا أماً لانها عاهرة فاجرة ! ضحيت نفسى على مذبح الشهوة البهيمية شهوة بضع دقائق شهوة لا تدوم ، شهوة تقضى على العفاف والشرف وكل ماتملكه المرأة الا وهو العرض الذى يعد أثمن شئ تملكه

لقد أسهبت فى وصف ذلك الذى أسقطنى وحملنى تبعة هذا العمل ! وهو يرتع فى ظل التشريع السقيم الذى سن لحماية أمثاله وموتنا الأدبى

أتحمل الآن ما أتحمل من الألم وهو يرتع لا يلوى على شئ . بل أذكر أنه لا يعرفنى ولا يبـدأنى بالتحية . وان جمعنى واياه مجلس حيانى بتصنع وتكلف .

يقولون أن مهنة الطب مهنة شريفة يضحى صاحبها راحته ليريح بنى الانسان يضحى أحياناً حياته لينقذ مريضاً ، ولقد سطر لنا التاريخ حوادث عـديدة

الشروط وقد حدثتنا فى أول مذكراتها أنها تربت فى احدى المدارس الفرنسية فكان الاجدر بها ألا تشدد فى ذلك

عفواً يا سيدى المعترض النبيل لقد تربيت فى المدارس الفرنسية ، وكنت فى جو أفرنجى ، ووسط عادات أجنبيـة ؟ ولـكن فى الوقت نفسه كنت مصرية ، مصرية قبل شئ ، مصرية فى عاداتى ، شرقية فى طباعى لم تؤثر فىّ العادات الفرنسية ولم أقتبس الا المستحسن منهـا ولم تـكن لغتى خليطا بين العربية والفرنسية أو فرنسية بحتة بل كانت عربية مصرية .

ويسرنى أن أقرر أن الصديقين الحميمين لزوجى كانا نبيلين الا أن بأخلاقهما بعض شذاذه ، فأولهما الطبيب النطاسى الماهر خريج أعظم كليات فرنسا ، والعضو فى أغلب جمعياتها ، والمتمرن فى كثير من مستشفياتها ؛ كهل في العقد الخامس من عمره تقلد وظيفة طبية سامية فى القاهره . وأما سبب تعرفه بزوجى فيرجع لسن الطفولة لأنه حتى اللحظة لا يدعوه الا ابنه ولا يسميه الا بذلك الاسم ، أما زوجى فيحفظ له بين جوانحه احتراما عظيما وينزله منزلة الاب عند وقوعه فى الملمات ، أما فى دور الشراب ولعب الميسر فيعده صديقه الصدوق المخلص له جد الاخلاص ، أما جنسيته فمصرى المولد والتبعية ، تركي الوالدين ؛ يتكلم الفرنسية والعربية والتركية ؛ يميل جد الميل للقراءة ويشغف بالمطالعة فهو دائم البحث كثير الاطلاع الا أنه مع ذلك يجد لديه متسعاً من الوقت ، يقضيه فى الميسر لانه يغرم به جد الغرم وتعاوده أحياناً ثورات نفسية شديدة تكاد تؤدى بحياته ولا أدرى أذلك ناشئ من كثرة الاطلاع أم من أدمانه على لعب الميسر وتتابع خسائره ؟ لانه فضلا أنه خسر جل ماله والأملاك التى ورثها عن أهله ، يخسر مرتبه الضخم فى أيام الشهر الاولى !!

أما الصديق الثانى المهندس المتفنن خريج احدى جامعات انجلترا ؛ فمصرى المولد والجنسية ، لم يخلف له والده الا بضعة مئات من الجنيهات ومرتبه الذى

اعتادت الامة المصرية النبيلة عادات أفرنجية مستهجنة ، لا توافق عاداتنا المصرية . نعم نقلنا كثيراً من العادات الافرنجية فأصلحت ما فسد من عاداتنا الا انه توجد بينها عادات ذميمة أفسدت ما توارثناه عن الآباء والاجداد من التقاليد الشرقيـة ، وتلك العادات يشكو منها الافرنج أنفسهم من الشكوى وأخص بالذكر منها : المحظبات والخمر ، والميسر بأنواعه وما أشبه

ومن العادات الذميمة التى سرت الينا بسرعة مجالسة السـيدات للرجال وهذه العادة الذميمة منتشرة بين الاصدقاء فى الاسر المصرية الـكبيرة ، الاصدقاء الذين يرافقون الاغنياء يلازمونهم كظلهم ، يصحبونهم فى الغداة والرواح ، يضحكون اذا ضحكوا ويحزنون اذا حزنوا ، حياتهم غش ونفاق ، قلوبهم تبطن غير ماتظهر أفئدتهم . ومن غريب أمر هـذا الصنف من الناس أن بعضهم من المتعامين .

كان زوجى قليل الاصدقاء ويعاشر صنفين منهما : أحدهما مقرب اليـه يخلص له كل الاخلاص والآخر يعرفه معرفه سطحية ولقد أحب أن يقدمنى للقسمين لـكننى ما طلت ، ورأيت أن لا أجيب طلبه ولماتشدد زدت اصراراً وصارحته أنى لا أقابل سوى أصدقاء الصنف الاول وهم المخلصون لا سيما وقد كان عددهم قليلا — اثنان فقط —

وقبلت ذلك خوفا من ثورة غضبه ، بعد ان تبينت أن خلقهما لا بأس به. وعلى شريطة ألا أقابلهما فى غيابه ، ولا آذن لهما بالدخول الا وهو بالمنزل ولا أجالسهما الا فى حضوره .

قبل تلك الشروط وقابلت صديقيه ولـكن ليتنى لم أقابلهما ، وليتنى لم أعرفهما .

قد يعترض على البعض فيقول :
ما بال هذه المرأة تشدد فى مثل هذه الطلبات ، وما بالها تشترط هـذه

خلفت لى والدتى ٥٠٠ فداناً أما والدى فترك ما يقرب من ١٠٠٠ جنيه، ولكنى سلكت مسلكا وعراً تراكم علىّ من جرائه دين ثقيل بلغ مجموعه زهاء ١٠٠٠٠ جنيه لانى كنت أصرف شهريا أكثر من ٨٠٠ جنيه على أصحاب السوء .

هذا حساب دقيق عن ماليتى فلتتصرفى فيه بتدبيرك . أما مالك فلك لا أصرف منه مليما وان شئت فليكن هبة منك لاولادنا ان قدر الله لنا ذرية ونسلا ؛ أما أنا فسأجتهد فأسلك سبيل الهدى والرشاد وأقلع عن طريق الغى والفساد . ولذلك أقترح أن أبيع بعض ما أملك لأسدد الدين ثم نعيش هادئين قانعين بما يبقى .

— نعم الاقتراح ونعم الطريق السوى ونعم الرأى السديد ونعمت العواطف .

— اذاً هيا نرفع أيدينا ونطلب من العلى الاعلى أن يسبغ علينا السعادة ويهبنا من لدنه قوة .

وكان هذا الدعاء الجميل بدءَ شروق حياة سرعان ما احتجب ضوءها .

٥

صفحة من حياتي

أشرقت شمس السعادة فى ربوع دارى وانتشر السرور فى جوانبه ، ولازمنى زوجى بضعة شهور تقرب من السبعة ، شعرت فيها براحة البال وهدوء النفس ، ومنذ تلك الايام أخلصت له أيما اخلاص أما هو فقابل اخلاصى بعطف ولكن سرعان ما توارت شمس السعادة بسرورها وهنائها وحل الشقاء محلها .

ولكن هل تعاهدنى بشرفك ، شرف آبائك وأجدادك ألا تذهب عند السيدة كاترين وهاك خطابها الذى تعلنك فيه بقطع الصلات .

— ماذا تقولين عن كاترين أمجدة فيما تذهبين ؟

— غاية فى الجد وهاك البرهان .

قرأ الخطاب وما أتى على آخره حتى اعتراه ذهول ووجوم واكتئاب ولكنة قال وعلائم الجد تبدو فى تجاعيد جبهته :

— أقسم لك بأغلظ الايمان انى لن أسدد خطاى نحو غرفتها وأزيد أنى لن أطرق باب بغى أخرى .

— جميل قولك هذا لكن أتعاهدنى ألا تشرب الخمر ولا تلعب الميسر ولا تبدد مالك وان كان ولا بد من احتساء بنت الحان فليكن غاية فى الاعتدال ؟

— هذا ما لا أستطيع أن أعدك به وعداً صادقاً . وكل ما أستطيع أن أعدك به هو أنى أحاول أن أفعل ذلك فان أخفقت أخطأت غير عامد .

— الآن وقد أصبحنا شريكين وصرنا زوجين ، فأود أن أطلعك على دخائل أمرى وأضع بين يديك كل ما أملك ، وفى الوقت نفسه أود أن تكشف لى الستار وتميط اللثام عما تبطن وتخفى فتظهر لى كل ما لك وما عليك وها أنا ذا أبدأ لك بالبيان :

— ورثت عن والدى ١٢٥ فداناً و٨٧٥ جنيهاً مودعة فى المصرف الاهلى والمنزل الذى كنا نسكن فيه .

— حسناً يا عزيزتى . رجوتينى أن أكشف لك الستار عن أمور لا يعرفها أحد وكنت قد أخذت على نفسي عهداً بكتمانها . ولكن لما طلبت منى هذا الطلب بصفتك زوجى فضلا عن تصريحك الثمين الذى أعقبه فلا أجد مندوحة من القول .

يعلوها أمارات الفرح والغبطة والهناء . المحتفلون مسرورون مبتهجون ، بينما أنا واجمة حزينة مطرقة . أفكر فى أمسي القريب ، فى موت والدتى ثم والدى ثم زوجى الجديد المبذر الفاسد الاخلاق ، السيء الطباع ، وأفكر فى المحظية التى حاولت اصلاحه فلم تفلح وشرعت فى تهذيبه فأخفقت .

انتقلت من منزل خالى الى منزل زوجى . وأنا لا أزال كئيبة كاسفة البال . تتساقط من عينى الدموع .

قضي الاحتفال دون أن أشعر بانقضائه ، وطلبت لأزف وأقابل زوجى لاول مرة . وما انقضت مراسيم العرس حتى دخل زوجى مرتديا حلته السوداء وكان جميلا فاتناً . دخل على ورجلاه لا تطاوعاه على المشي فحسبته خجلا متردداً كعادة العرسان . ففرحت فى نفسي ولكن لم يتم سرورى لانى تبينت أنه يترنح من شدة سكره . تأبط ذراعى وقادنى لغرفة النوم حيث ارتمى على المقعد ثم تقايأ وبعد ذلك نام نوماً عميقاً حتى مطلع الفجر .

قضيت ليلة عرسي ساهرة أرقب النجم فى علياء سمائه ؛ ذاكرة عزيزى ، باكية حر البكاء لابثة كذلك حتى تبددت جيوش الظلام ، وأخذت خيوط الضياء تلوح فى الافق .

أخذ زوجى يتحرك وأتممت ايقاظه دمعة حارة من دموعى التى سكبتها عيناى الحزينة وتأوهاتى المنترعة من صدرى المفؤود . فثاب الى صوابه ورجعت اليه بعض عواطفه النبيلة فقال :

— عفواً زوجتى . أسألك أن تغفرى ذنبي ؛ وتتجاوزى عن خطيئتى ، وتصفحى عن ذلتى ، وسأجتهد أن أكون لك نعم الزوج المخلص الساهر على راحة زوجته ، الباذل جهده فى محبتها والاخلاص لها .

فأجبته وأنا متأثرة من كلامه :

— كلام جميل ، ووعد أجمل ، ومستقبل سيكون حميداً ؛ لو نفذت ما تقول .

الدمع مدراراً فمحت بعضاً من سطور الخطاب الهادم لآمالى . وبينما أنا مستغرقة فى الحزن اذ سمعت وقع أقدام أعقبه نقر خفيف .

ثم فتح الباب فاذا بى أرى والدى أمامى واجماً حزيناً كئيباً تترقرق الدموع فى عينيه ، والدى الجندى الخشن الطباع الآمر الناهى الذى لم أره باكياً الا اليوم . والدى الذى يبقر البطون ويطير الرقاب ، رأيتـه واقفاً أمامى باكياً فهرعت اليه وجثوت تحت قدميه وسألته ما خطبه ؟ فقال لى بصوته الاجش والعبرات تخنق صوته :

تشجعى يا بنية فقد ماتت أمك

ما كادت تصل هـذه الكلمات الى أذنى حتى صعقت فى مكانى ووجمت ونالنى ذهول . حاولت أن أتكلم فلم أستطع ، حاولت أن أبكى فلم تسعفنى الدموع ، وقد كانت تلك الحالة من أشد الحالات لوعة وموقفى فى تلك اللحظة من أشد المواقف هولا .

***

قضى الامر وذهبت والدتى الرحيمة ، ذهبت من كنت أدخرها لوقت البؤس والشقاء ، ذهبت من كنت أود أن أفضي اليها بسر هذا الخطاب .

لم يمض أسبوعان على انتقال والدتى الى العالم الابدى حتى لحقها والدى بعد أن مرض مرضاً أعيا الاطباء وهكذا قدر على بالشقاء منذ الصغر .

تأجلت حفلة الزفاف بحكم العادة التى جرى عليها المصريون الى ما بعـد عام ، قضيتها فى منزل خالى عانيت أثنائها صنوف الحزن وألوان الشقاء .

***

أقيم أمام المنزل سرادق فخم وزين الشارع بالرايات والمصابيـح وزغردت النساء ودقت الطبول وصدحت الموسيقى وتعالت أصوات الهتاف وأقبل الناس من كل فوج يحتفلون بالعرس ، فكنت لا ترى لا وجوها باسمـة وأسارير

حضرة الآنسة المهذبة

سمعت ذلك الخبر الذى قضى على ؛ وعلى ما كنت أرجوه من حياة سعيدة — كما أفهمها — فى ظل ذلك الشاب الجميل زوجك الجديد

انى محظية افرنجية رأيت زوجك فأحببته ولا أدرى هل أحبنى أم لا ، بل كل ما أعرفه هو أنه أخلص لى حتى الساعة فاطلعنى على دخائل أمره وخفايا نفسه حتى أخبرنى بخطبته لك ثم عقد قرانه بك ولما كنت أعرف كل أمره أحببت أن أعرفك بطرف من أخلاقه وسجاياه لاقوم بخدمة نحو فتاة شريفة على وشك الزواج بفتى غر سكير ، مضياع لماله ، متلاف لصحته ، مطلاق لخليلاته ، قليل الصبر على معاشرة محظياته ، رمته المقادير بين يدى فاستطعت أن أردعه قليلا لاختصه لنفسى ولقد أخلص لى هو بعض الاخلاص . أما أنا فمنحته قلبي وأحببته لنفسه لا لماله وجماله ، ولكن ما بذلته من المجهود فى سبيل اصلاحه لم يثمر ثماره المنتظرة ، لان الشر متأصل فى نفسه كامن فى فؤاده على أنى لم أيأس من اصلاحه بل ثابرت فى جهادى حتى استقام ما اعوج من أخلاقه قليلا ، وتبدلت طباعه الشرسة منذ ذلك اليوم الذى عرفته فيه والآن وقد أصبحت بحكم الشرع زوجته فانى بكل اخلاص واحترام أرده اليك وسأحاول نسيانه ما استطعت الى ذلك سبيلا ، لاهية بغيره معرضة عنه

واعتماداً على أخلاقك الرضية ونفسك الطاهرة الكريمة ، آمل أن تتمى شفاءه فيرجع عن غيه ، ويثوب لرشده ، ويؤوب لمنزله حيث يجد زوجته المخلصة البارة المطيعة لامره المنفذة لرغائبه ومطالبه . وتفضلى ياحضرة السيدة المصونة بقبول خالص التحيات والاحترام .

كاترين دى ملارى

أسقط فى يدى وهجم على الحزن والشقاء بجيوشه ، وخابت آمالى التى كنت أبنى عليها قصور السعادة وصروح الهناء : وتفجرت من عينى ينابيع

٣

قبل الزواج وبعده

أخذ اليوم الذى ضرب موعدا لزواجى يقترب ، وأخذت أستعد للحياة الجديدة التى سأطرقها وأصور فى مخيلتى المنزل . ما أجمل هذا الاسم وما أجمل وقعه فى نفسى

المنزل هو ذاك السكن المقدس الذى ترفرف على جوانبه ملائكة الهناء والسرور ، هو تلك الجنة الأرضية التى لا تسمع فيها الا رنات سرور وابتسامات حبور ونغمات ملائكة ؛ المنزل مقصد الزوجين ومأوى البنين والبنات ؛ المنزل مهبط الحب بكل أنواعه: الحب الابوى الحب البنوى، الحب الزوجى ؛ حب الأقربين ؛ حب مساعدة الضعفاء ؛ حب مواساة المساكين ، المنزل مدرسة الطفل الأولى؛ مدرسه الأخلاق الكريمة ؛ المدرسة التى تقوم الزوجة فيها بدور الاستاذ الأول ؛ المنزل المكان الذى يهرع اليه الطفل ان كان خائفا مذعورا ، والزوج ان كان حزينا كئيبا ؛ حيث يجد كلاهما الملاك الذى يسرى عن نفسه همه وشجنه فيطمئن خاطره وتهدأ نفسه ؛ المنزل مهبط أيام الصبى الجميلة أيام السعادة المتتابعة ، أيام الأمانى والأحلام ، أيام الاسترسال فى المسرات ، أيام النزاع الطفيف ؛ أيام الشقاق اللطيف ، الذى لا يلبث أن يزول

وبينا أفكر فى السعادة التى سأتمتع بها فى القريب العاجل اذ سمعت نقراً خفيفاً على الباب ؛ فتحته فاذا هى الخادم تحمل لى خطابا فرنسيا فأخذته منها وقلبته بين يدى — كما هى عادتى — وقد دلنى خطه أن كاتبته فتاة أفرنجية ففضته بقلب وجل ونفس قلقة فاذا به ما يأتى .

المقدسة التى توارثها الآباء عن الاجداد منذ القدم تقع تحت طائلة الاضطهاد فان لم ترم بالفسق والفجور فلا أقل من ترم بالتهور فى الحب والعياذ بالله .!!

استسلمت لامر القضاء والقدر وأخذت استعد للحياة الجديدة ؛ وأصور ذلك الزوج فى نظرى ؛ فلا أستطيع أن أتمثل له صورة الا الصورة التى وصفتها لى عجوز كانت تتردد على دارينا فقالت لى تصفه :

« طويل جميل ، بدين لطيف ، أصفر الشعر غزيره ، أزرق العينين جميلهما فاتن الوجه ساحره ، مورد الخدين ، مقصوص الشارب ، متأنق فى ملبسه ، متدلل فى مشيته متصنع فى حركاته »

وفاتها أن تقول لى : —

سىء الخلق رديئه ، خبيث النفس ، فاسد الاخلاق ، يتعاطى المسكرات الى حد الادمان

وقد أخبرتنى بهذه الصفات التى أخفتها عنى العجوز احدى الخادمات ، التى لازمتنى أيام محنتى وتعاستى ، ففاتحت ووالدى فى أمره فقال لى :

أجل يا ابنتى أنه لكذلك ولكن آمل أن يثوب لرشده بالزواج وأنت تكونين خير معين على اقالته من تلك العثرة . ولا يعزب عن بالك يا ابنتى أنه كثير المال وفير الثروة صغير السن ، جميل المحيا ، لا زوجة له ولا ولد ؛ ولا أم ولا والد ، بل هو فرد من اسرة كريمة لم يتبق منها الا هو ....

وبعد حديث طويل نالنى فيه كثير من سهام اللوم أذعنت للارادة المقدسة التى لا مرد لقضائها

كان والدى ضابطا فى الجيش المصرى وكانت آخر أيامه فى الجيش استرجاع السودان فما تم استرجاعه حتى طلب احالته على الاستيداع . فاجيب طلبه بعد تردد طويل وأنعم عليه برتبة القائمقام . أما والدتى فابنة عالم من حماة رجال الدين الحنيف وكانت اسرة والدتى مشهورة فى بلدتنا طنطا أنها أقدم اسرة فى هذا البلد ، خدم أفرادها الشرع والدين منذ أكثر من نصف قرن .

ولما كنت وحيدة والدىّ وكان والدى متغيباً على الدوام فى الاقطار السودانية عهد أمر تربيتى وتعليمى الى خالى ، فقام بهذا الواجب خير قيام ، فادخلت احدى مدارس طنطا الفرنسية ، وبها مكثت بضع سنين نلت فى خلالها شهادتها الدراسية وتعلمت فيها العربية والفرنسية وبعض الانجليزية ، وعقب نوالى الشهادة لزمت دار أهلى منتظرة الزوج الذى يفتح باب الحياة الزوجية السعيدة ، جريا على العادة الشرقية . أخذت استعد للحياة الجديدة ، حياة الغبطة والهناء ، حياة الأمانى والاحلام ، فاخذت أهيىء نفسى لهذه الحياة ، فاتقنت التدبير المنزلى وأخذت الخاطبات تتوارد على منزلنا فرادى وجماعات ، ووالدتى وخالى يقابلاهن بالرفض ، منتظرين رأى والدى فى الامر ولما عاد للوطن أخبرنى بعقد خطبتى على ابن أحد اخوانه الضباط وكان لذلك الزوج الفتى أم توفيت وخلفت له مالا كثيراً وأراض واسعة وكان سنه اذ ذاك اثنى عشر عاما وكانت تلك الثروة التى نالها سبباً لان يعرض عن المدرسة ويقع فى المفاسد والشرور ، ووالدى رحمه الله لم ينظر اليه من الوجهة الاخلاقيه بل نظر اليه من الوجهة المادية

لم أستطع معارضة أبى فى ارادته ، وأية ابنة شرقية تستطيع الوقوف أمام ارادة أهلها فى مثل هذه المسائل وان كانت من أشدها مساسا بحياتنا المستقبلة ؟ فقد قضت العادات والتقاليد الاجتماعية أن نذعن لارادة الآباء مهما كانت قاسية ظالمة . والفتاة التى تتأفف وتتبرم وتثور على هذه الارادة

على كل من تحترفها . فهـل يسمع الله نداء عاهرة ، وابتهال بغى تسأل ربها الـكريم أن يمحوا هذه التجارة الخبيثة من العالم حتى تنزل الستار على ماتجره من المصائب والـكوارث ؟ (١)

٢

من أنا . . . . ؟

يتساءلـ كثير من الناس فيقول :

من هى تلك المرأة ، وهل حقا هى تلك الماثلة أمامهم بذلك الاسم الذى انتحلته فى حياتها هذه ، حياة البؤس والشقاء ، أم هى شخص خيالى وهمى لا وجود له الا فى مخيلة الـكتاب والشعراء ؟

أيها المتسائل الـكريم الذى يتوق لمعرفته كنه هذه الحقيقة ويود أن يعرف من أنا ؟ وابنة من ؟ وكيف تربيت ودرست ؟ وهل أنا متعلمة أم جاهلة كالـكثيرات من طبقتى ؟ وما الدافع الذى دفعنى لان أزل هـذه الزلة التى لا تشفع فيها الدموع ، ولا تغنى عنها مرارة التفـكير والآلام .

البغى ان تاقت يوما الى الشرف حالت دونها الشرائع ووقفت فى سبيلها التقاليد ، أما الشريفة فطريق البغاء أمامها مفتوح على مصراعيه !.! تلجه ان شاءت ولها من نظام اجتماعنا الفاسـد مغريات ودوافع ، أيها المتساءل إليك قصتى :

انى فتاة لست جميلة الى حد الفتنة ، أما أبواى فقد كانا من اسرة عريقة فى النسب معروفة بين غيرها من الاسر ، بما لها من شرف أثيل حتى قدر لها أن أكون السبب فى انزال الستار على سبب حياتها وداعى فخارها بين الناس

(١) بعض جمل هل الفصل مقتبس من ذات الـكميليا

ذلك لفررن من هذه الحرفة وفضلن الموت عن أن يسلكنها ولكن الغرور حدثهن بما يصبنه من ثمين الثياب وغالى الاثاث ونادر الجواهر فاستدرجهن لذلك استدراجا .

تعتقد الساقطات أن ما يسمعنه من الكلام المزوق الجميل المتدفق من أفواه المتظاهرين بحبهم ، جد صحيح فيبرين لذلك قلوبهن ، ويبلين أجسامهن ويزوين جمالهن فى العهارة ، والرجل يرهب معشر الخليلات رهبته للوحوش الضارية ويحتقرهن احتقاره لرعاع الناس .

يرحم الانسان الاعمى لانه لا يبصر أشعه الشمس ، ولا يتمتع بجمال الطبيعة وجلالها ، ويرثى للاصم لانه لا يشنف سمعه بالنغمات الشجية ولا الحلو المطرب من الالفاظ والمعانى ، ويعطف على الابكم لانه لا يستطيع أن يرجع أصوات النفس الحساسة ولا التعبير عما يخالج نفسه العالية ، لكنه لا يرحم البغى التى سقطت تبعا لقلب أعمى لم ير الشوك الذى يسير فوقه فظهرت بقلب يظهر للناس أنه قانع راض بينما يقطر حزنا وأسى . ونفس صماء لم تسمع صوت طلاب الاصلاح الخافت الذى لا يتبين وسط ضجيج أصوات الشرور والمفاسد والاثام ، وضمير أبكم عجز أن يعبر عن شدة ألمه وقدر حزنه .

يرمى الرجل المرأة بالذنب كله ويلصق بها الجريمة كاملة ويلقى على عاتقها التبعة ، فلماذا لا يحكم المجتمع على من مهد لها ذلك السبيل ، على من غرها بالامانى ، واستدرجها الى سلوك سبل الخطيئة بوعوده الخلابة ، لم ذلك؟ لانه هو القوى ونحن الضعيفات ، هو الحاكم ونحن المحكومات ، هو الرجل وليس عليه أن يعبأ بانتهاك الشرف ، ويرعى حرمة للعفاف وذمة للعرض ، بل يفسق ويفسد وينتهك الحرمات ويرتكب المحرمات ؛ وله من الشرائع الباطلة عون ونصير .

أجل أنى أمقت حرفتى جد المقت واستنزل اللعنات والمصائب الجسام

١

نفسي الحزينة

أظن أنى أول بغى فى أرض الفراعنة خطت مذكرات تكشف فيها الستار عن حالها ومعيشتها ، ولا أعلم هل يتاح لشخص ما العثور عليها لينشرها بين الناس أم يكون نصيبها الاهمال التام ؟ واذا نشرت فماذا يكون حكم القراء عليها ؟ هل سيكون حكما قاسياً ظالما كحكم الايام التى أوجدتنى فى مركزى الذى عرفنى بأفراد من كل العناصر أم أنها تلاقى من عطف القراء ما لم ألاق من زمانى ؟

عرفتنى الايام بأناس من كل الطبقات والطبائع ولا أبالغ حين أقول أن قصرى الصغير يممه الشريف الحسيب ، والعالم الجليل ، والطالب الشاب ، والموظف الكبير ، والسرى العظيم ، والادارى القدير ، وأمضوا فيه ساعات وأياماً .

فان كنت بغيا من البغايا الا أنى لست مثلهن ، فلا يتبادر الى ذهن هؤلاء أنى أنكث بعهودى معهم فأبوح بأسمائهم أو ما يدل على أشخاصهم ويذرى بشرفهم ، لانى وان كنت عاهرة الا أن لى ضميراً يتألم ، وقلباً طاهراً يشعر بالواجب .

آه لو علم النسوة اللائى يحترفن حرفتى المخجلة الشائنة التى تقضى على العفاف والشرف ، لو علم ذلك النفر من الجنس اللطيف حقيقتها قبل أن يحترفنها لآثرن أن يعشن خادمات أو طاهيات شريفات ، لو عرفن كم من الدموع سكبت ، وكم من الايام حزنت ، وكم من الليالى سهرت ، لو علمن

مقدمة ناشر المذكرات

لست رسول الرذيلة فى الـكون ، ولا نذير الفساد أو ناشر الغواية بين الانام ، لـكنها مذكرات احدى بنات حواء ، خطتها أناملها أيام بؤسها ، وأزمان شقائها ، وقد اندفعت فى تيار العهر والفساد ضحية ظروف قاسية سببها طيش زوج جاهل فهى حسرات بغى كشفت فيها القناع عن خفايا عيشها ، ودخائل حياتها ، وطرفا من أسرار عشاقها ، والمعجبين بجمالها ، أولئك الذين ارتبطت معهم مكرهة مرغمة ، وما يكتنف هذه الحياة من دموع وآلام . أقدمها لابناء وطنى دون تغيير معالمها ، عبرة وذكرى .

السكاكينى ٥ ابريل سنة ١٩٢١

محمد رأفت جمالى

رأفت جمالى تحت توقيع (أبو نواس) ظهرت فى كتاب كبير الحجم بمقدمة بقلم عبد العزيز افندى الخانجى فى نظرية (السقوط والعفو) وهى كما يقول عبد العزيز افندى . نموذج صغير من كتاب «مرجريت» نرجو لها الرواج والانتشار لانها مظهر من مظاهر نصرة المرأة .

(النيل العدد ٦٥ من السنة الثانية)

(٩)

مذكرات بغى أو كما أسميها « مذكرات اجتماعية لا بد منها » هى أحسن مذكرات أدبية قرأتها بل هى روضة فيحاء ، وحديقة غناء جمعت بين الحقيقة والجد والاخلاق والتفاضل بينها ولولا الاضداد ما عرفت . هى دروس عبر ممتعة ممتزج العلمى فيها بالعملى اذ تشرح النظرية العلمية وتزيدها جلاء ووضوحا بذكر القسم العملى منها ، فيستفيد الصالح والطالح اذ يزداد الاول بغضا وكراهية ومقتا لتلك الموبقات ويرعوى الثانى ، وربما ازدجر من التشهير والنفى عليها — ولله در تلك المذكرات ما أكبرها عظة للنفوس ولله منشؤه ما أبرعه من كاتب أخلاقى مجيد .

محمود فريد البليهى

(٥)

رواية أخلاقية عاطفية بقلم الاديب الاريب محمد افنـدى رأفت جمالى .
وقد قرأنا عدة فصول فى هذه الروايه . فاذا هى أولى بان تدعى كتابا أخلاقيا يليق بأن يقرأ غير مرة لطلاوته ولما حواه من الافكار السديدة والفصول المؤثرة فنثنى على حضرة المؤلف ونأمل أن تنتفع الناشئة بأدبه .

(مجلة السيدات عدد مايو سنة ١٩٢٢)

(٦)

وضع حضرة الكاتب الفاضل رأفت افندى جمالى كتابا حديث الاسلوب ضمنه بحثاً اجتماعياً شائقا على طريقة قصصية وأسماه « مذكرات بغى » وعنوان الكتاب يعبر عن حقيقة مباحثه وعما أراده الكاتب من الاصلاح الاجتماعى بتأليفه

(النظام عدد ٢٥ ابريل سنة ١٩٢٢)

(٧)

أهدى الينا حضرة الاديب الفاضل محمد افندى رأفت جمالى نسخة من مؤلفه الجديد (مذكرات بغى) فتصفحناه ووجدناه كتابا اجتماعيا يصف حالتنا الادبية وصفا دقيقا ويظهر ما خفى من أسرارنا التى سببت انحطاطنا الادبى وهو كتاب جدير بأن يقتنى لموضوعه العجيب ولغته السلسة ، وألفاظه المنمقة ولعله الكتاب الاول الذى ظهر من نوعه فى قالبه الروائى البديع فنحث الادباء على اقتنائه

« السمير المصور عدد ١٩ »

« حديقة الفكاهات عدد ٣ »

(٨)

هذه المذكرات التى كانت تنشر تباعا بجريدة أبى الهول بقلم محمد افندى

التى لم تتعود الدخول فى مجامع الرجال وخاصة الرجال الذين يعتبرهم الزوج أصدقائه المحبين وثانيا لخطر النساء الساقطات خصوصا على الشبان .

ولقد وضع جمالى افندى قصة شيقة ممتعة تأسر القارىء بحوادثها الفجائية التى تتعاقب بسرعة ولقد عالج موضوعه بطريقة حسنة . »

« الاجبشان جازيت »

« عدد ١٨ مايو سنة ١٩٢٢ »

مذكرات بغى — بقلم حضرة الاديب محمد رأفت جمالى جعل موضوعه سقوط المرأة والعلاج الناجع لها لتقال بها عثرتها وترفع من وهدتها فقال فى البيان الذى وضعه لنشر المذكرات .

« لست رسول الرذيلة فى الكون ولا نذير الفساد ولا ناشر الغواية بين الأنام لكنها مذكرات احدى بنات حواء خطتها أناملها أيام بؤسها وأزمان شقائها وقد اندفعت فى تيار الفساد ضحية ظروف قاسية سببها طيش زوج جاهل . فهى حسرات بغى كشفت فيها القناع عن خفايا عيشها ودخائل حياتها وطرفا من أسرار عشاقها والمعجبين بجمالها أولئك الذين ارتبطت معهم مكرهة مرغمة وما يكتنف هذه الحياة من دموع وآلام . أقدمها لابناء وطنى برمتها دون تغيير معالمها عبرة وذكرى » (مقتطف مايو سنة ١٩٢١)

(٤)

قصة ممتعة مسبوكة فى قالب جميل مستحدث فى اللغة الغربية بقلم الاديب محمد رأفت جمالى الذى حذا حذو بعض الكتاب الغربيين فى وصف معيشة البغى ومشاعرها ومكنونات قلبها ويظهر غرض المؤلف من الجملة الذى صدر بها الكتاب وهى « الرجل والمرأة سواسية فى جرم السقوط أمام محكمة الحقيقة والوجدان » فهذه القضية من أدق القضايا الاجتماعية وأعظمها شأنا وقد تناول البحث فيها طائفة من كبار الكتاب العمرانيين ويسرنا أن مصنف هذا الكتاب عنى بهذا الموضوع » (هلال يونيه سنة ١٩٢٢)

أصبح الناس لا يحترفون الصناعات الشريفة الا من أجل المال أو للمآرب النفسية فالطبيب والمدرس والصحافى والكاتب ، كل أصبح لا يحترف مهنته الا من أجل المال .....

وانى أعتقد أن كتاب جمالى افندى سيتصفحه عديد من القراء وآمل أن الدرس الذى قدمه لا سيما للشباب الناهض سيقع من أنفسهم موقع القبول .

س . س

« صحيفة الاجبشان مايل »

« عدد ١٤ ابريل سنة ١٩٢٢ »

(٢)

ولقد كتبت صحيفة الاجبشان جازيت عن الكتاب دون أن أهديها نسخه فبرهنت بذلك على عناية جميلة وأظهرت تقصيرى فى هذا السبيل . ولا يسعنى الا اظهار شكرى لجناب مديرها وحضرة من تفضل بكتابة الكلمة .

آلام الحياة الساقطة

ظهر حديثاً فى عالم المطبوعات كتابا مبتكر الاسلوب لكاتب جديد باسم « مذكرات بغى » بقلم محمد رأفت جمالى .

والكتاب مع أنه قصة الا أنه مملوء باخبار عن معيشة المخلوقات البائسة التي تسقط فى هوة الرذيلة مقودة غالبا بغلطات الازواج .

ان بطلة الرواية فتاة تنتمى الى اسرة كريمة تزوجت من رجل لا تحبه ولا تعطف عليه ولكنها أخلصت له ودفعها اخلاصها أن تضحى نفسها ولذلك قدمت شرفها التى تعده أثمن كنز تملكه رجاء انقاذه فسقطت فى الحضيض تبعاً لذلتها الاولى ولكنها ونقت لرجل أحبها وأشفق عليها وأسبل على تاريخها الماضى ذيول الصفح والنسيان .

والكتاب حقاً يلفت النظر أولا لغلطة اختلاط المرأة المحجبة المصرية

الطبيعة قد اتخذتها محافظة على النسل ، فضلا عن أنها تخار الزوج وشرفه ولقد فات الناس أن الرجل شريك طبعى للمرأة فى كل الحالات المعيشية ، ولذلك يجب أن نبذل كل ما نستطيع لنهدم الاماكن العمومية التى تبيح الاتجار بالعرض علنا . فهذه المواخير من أظهر الأدلة على نقص نظمنا الاجتماعية لان انتشار هذه المنازل معناها حماية الرجل والقاء المسئولية كلها على الرجل وحده وهو هو سبب هذه الشرور . »

الرواية قصة امرأة زوجها والدها بشاب لا تعرف عنه شيئاً سوى غناه، وبعد زواجه قدمها بالرغم منها لاثنين من أصدقائه المخلصين أحدهما طبيب ، ولم يمض على زواجها الا القليل حتى خسر ما يملكه فى الميسر ثم حاول أن يقتل نفسه ، وفى هذه اللحظة تقدم الصديق الطبيب وأخذ على عاتقه اجراء العملية الجراحية لينجى حياة زوجها على شرط واحد وهو أن تسلم له عرضها ، ولما كانت هذه على وشك أن تصبح أماً وكانت قد تعلمت أن تخلص لزوجها فوجدت نفسها بين متناقضين وللسبب السالف سقطت فى الهوة العميقة وبعد قليل مات زوجها ووجدت المرأة التى أصبحت أماً احدى المطرودات من المجتمع ولتكفر عن ذنبها سولت لها نفسها أن تحترف البغاء بعد أن سد أمامها كل طريق وقد حدفها فقدمها لرجال كثيرين متبايني الاعمار فساعدها بذلك على أن تزداد فساداً ولكن الحظ قيض لهذه المرأة الشقية رجلا أحبها دون أن يعبأ بمعيشتها وأخيراً تزوجها بشرط اشترطه عليها والده

والكتاب مملوء باشجانها ومن كلماتها :

سعادة المرأة البغى سعادة كاذبة مملوءة بالاشجان وهى تتظاهر بحب الرجل قدر المال الذى يغدقه عليها ....

كثير من الخدم تضطر أن تسلم نفسها لذوى نعمتها خشية أن تفقد مركزها ولكنها لا تلبث الا القليل حتى يكشف أمرها فتطرد دون شفقة ولا رحمة ....

كلمات الصحف والمجلات

(١)

الآداب العربية

اعترافات بغى

« مذكرات بغى بقلم محمد رأفت جمالى »

« المطبعة اليوسفية بالقاهرة سنة ١٩٢٢ »

فى خلال الصيف الماضي نشرنا تحت العنوان السابق مقالات من هـذه القصة عند ماكانت تنشر فى صحيفة « أبو الهول » الاسبوعية التى تبحث فى الامور الاجتماعية وعلى الخصوص ما يتعلق بالمرأة المصرية .

ولقد جمع المؤلف هذه المقالات وطبعها حتى يعرف قارئاتها وقراؤها كيف تنتهى هذه القصة دون أن ينتظروا عدة أسابيع أخرى ليعلموا نهايتها من أبى الهول .

لقد عالج جمالى افندى مرضاً من أخطر أمراضنا الاجتماعية فى قالب روائى ولقد كان الهدف الذى يرمى اليه ليس هو اظهار شرور هذه الطائفة فحسب ، بل تحليل الحالات التى تسبب سقوطهم حيث تقع على عاتقهم الجريمة ، والطرق والوسائل التى تتخذها هؤلاء النساء فى سبيل اغواء من يقع فى شباكهن .

ولقد صدر الكتاب بمقدمة الكاتب المعروف عبدالعزيز افندى الخانجى فقال فيها .

« من الخطأ أن نلقى الذنب كله على عاتق المرأة وحدها — بالرغم من أنها هى التى تتألم — وعلى رأسها وحدها يصب المجتمع جامات غضبه بحجة أن

الاهمال بعد أن تزول جدتها وتذهب نضارتها ، أليس هو الرجل ؟

مع كل ما مر بها من ظلم الرجل وقسوته لها فى كل أطوار الحياة لم تهىء لها الاقدار الا قليلا من الرجال الذين ناصروها فحللوا دقائق نفسها ليبينوا للناس ذخائر ما تكنه من العواطف والمشاعر السامية وما يؤلمها ويفرحها ، وما يشقيها ويسعدها ، لا سيما تلك التى تسقط لأن لها ظروفاً خاصة تستدعى الاهتمام والتفات الناس الى خطأ درجوا عليه منذ عهد السلف وهو احتقارها والازدراء بشأنها مهما كانت الأسباب التى دفعتها الى سلوك هذا السبيل الوعر فكتبوا فى ذلك كثيراً من الكتب وألفوا جملة من القصص ليحركوا شفقة الرجل عليها ويزيلوا مافى نفسه من أثر التعصب نحوها ، التعصب الموروث من آبائه وأجداده

سيد من كتب فى هذا الباب هو النابغة العبقرى الكسندر دوماس الصغير فخر الروائيين فى فرنسا فان كتابه الخالد (مرجريت) على ما فيه من الغلو آيه الآيات ومعجزة المعجزات فى هذا الباب ، والكتاب الذى تقرأه الآن هو نموذج صغير من ذلك الكتاب العظيم ؛ نرحب به و نتمنى له الشيوع والرواج لانه مظهر من مظاهر نصرة المرأة والاخذ بيدها هدانا الله جميعاً الى سواء القصد ؟

السكاكينى ١٩ مارس سنة ١٩٢٢

أما اذا كان الجرم واقعاً من كليهما فعلينا تشريع القوانين التأديبية التى تطبق بالتساوى على الاثنين معاً

يجب علينا أن نسعى فى هدم الاماكن العمومية التى تبيح الاتجار بالعرض علناً لان تلك المواخير ما هى الا مظهر من المظاهر التى تتجلى فيها نقائص نظامنا الاجتماعى ودساتيرنا المدنية كما أسلفنا فان اباحة مثل هذا العمل معناه حماية الرجل من مسئولية السقوط والقاء التبعة على المرأة المستضعفة المستذلة

ما أغرب حجة الذين يقولون بوجوب بقاء هذه الاماكن بدعوى لزومها الطبيعى ! ! لو كانت الطبيعة فى حاجة الى مثل تلك الاماكن القذرة لما كنا نشاهد كل يوم الويلات والمصائب التى تجرها علينا هذه ولما تصاعدت منها تلك الجراثيم القتالة التى تولد الحميات الاجتماعية الفتاكة بالأرواح والنفوس فى حياة المدن والحواضر

اللهم لقد طفح الكيل ، الى متى ونحن نستعبد المرأة ، نصف الانسانية ونتحكم فيها أما آن للرجل ان يقف عند حده ويمد يده الى تلك التى استعبدها طوال الازمان والاجيال . الق بنظرك على المجتمع فى أى مدينـة من مدن العالم المتحضر ترى منازل للدعارة تتنقل فيها تحت ستار البيـع

الرجل هو السبب فى هذه الفوضى ، الرجل وحده هو الذى يؤسس تلك المعاهد الشيطانية والا تجد فهل فيها الا أمرأة تركت زوجها مرغمة بعد أن ذاقت الامرين من سوء طباعه وشراسـة أخلاقه ، أو فتاة أغواها سـفيه شجعته قوانين اجتماعنا الفاسـد ، أو أمرأة التجأت بدافع الضيق الى بيئة أخرى غيرت من طباعها الفاضلة وهيأت لها السبيل الى هذا الطريق

من ذا الذى يشتهى المرأة ويذللها ويخادعها ويسعى لامتلاكها ليطردها بعد أن ينال بغيته منها أليس هو الرجل ؟ من الذى يفسد على المرأة طباعها الغريزية ويجعلها لعبة يلهو بها فى أوقات فراغه ثم يحطمها أو يلقيها فى زوايا

تأثيراتها العائدة على الافراد ونظروا اليها من وجهة تأثيرها فى الاجتماع وبديهى أن كل منهما مجرم فى نظر الاجتماع .

اذن فمسئوليتهما واحدة

حيا الله الشريعة الاسلامية السمحاء فانها تعد الزانية كالزانى ولا تفرق بينهما فى المسئولية .

أننا نجد أن الاثنين سواسية أمام محكمة الحقيقة والوجدان .

قد يعترض معترض فيقول :

« ترى الرجل يرتكب هذا الجرم فيخرج منه نقياً طاهر الذيل لا لوم عليه ولا تثريب بينما تشقى المرأة وتسوء عقباها وكلاهما أتى ذنبا مشتركا »

لمثل هذا نقول أن هـذا أمر غير طبيعى وانما يرجع سببه الى فساد نظامنا الاجتماعى ؛ فلو نظر الاجتماع اليهما نظرة واحدة وعاقبهما عقابا مساويا لما وصلنا اليوم الى هذه الحال التى نشكو منها

هب أن الشرائع كانت تحتم على الساقط(١) والساقطة أن يتزوجا بعضهما زواجا مؤبدا مع حرمانهما من كافة حقوق الطلاق وعدم السماح لهما بالزواج من آخرين تأديبا لهما : ألا تشعر بأن مثل هذه الشريعة قد تؤدى الى نتائج حسنة لا تخطر على بال

(١) لم أجد كاتبا استعمل هـذه الكلمة بالمعنى الذى نطلقه على المرأة الساقطة ولما كنت من القائلين بوجوب اعتبار الزانى ساقطا كالمرأة فلا أجد مندوحة من استعمال هذه الكلمة فى موضعها هذا

هناك نوع من السقوط تجبر عليه المرأة أى أن يفترسها وحش من بنى الانسان وهى مرغمة مكرهة ؛ مثل هـذا العمل الشائن تقع مسئوليته على الرجل ؛ أما المرأة فلا يجب أن ينالها أدنى لوم أو ينظر اليها نظرة احتقار وهوان ؛ ومنع ذلك عائد على رجال الضبط

وهنالك حداً للاصرار والتكليف ، والاغفال والعشق ، واليأس والمقاومة ..

ليفكر هؤلاء فى حال أمرأة هجرها زوجها الى غيرها لا ينيلها ما لها من الحقوق الانسانية والعائلية ، أخذ حبله على غاربه وانهمك فى كل صنوف السفاهات والشهوات ، مبيحا لنفسه خيانتها وهى مع ذلك صابرة تقاوم هجمات سفيه آخر يحاول أن ينال منها ما يبيحه زوجها مع غيرها . ليفكروا وينعموا النظر فى ذلك ، لتقدير الزمن الذى تستغرقه مثل هذه المرأة فى الدفاع والكفاح !! ! فلا يمكن اذن أن نضمن لنفسنا نتيجة مرضية لحل هذه المشكلة اذا نحن سلكنا هذا السبيل ، سبيل القاء المسئولية على عاتق المرأة .

الطريق السوى هو أن نحاول مداواة المرض بالأدواء الناجعة التى تتمشى مع الحقيقة ولا تحيد عن دائرة النواميس الطبيعية . يجب أن نعتقد تمام الاعتقاد بأن الرجل أيضاً محتم عليه أن يعمل ما فى وسعه لحفظ النوع الانسانى ولوقاية النسل والا ما معنى أن يكون الرجل شريكا طبيعياً للمرأة فى كل أدوار الحياة : فى الأسرة ، فى الحروبات ، فى دفع المتاعب المادية ، ومقاومة الأضرار المعنوية ثم لا يعد شريكا فى الدفاع عن مصلحة النسل .

فطر الحيوان والانسان بدافع الطبيعة على محافظة كل كائن محبوب منه مقرب من نفسه وما دام الرجل أيضاً مفطور على محبة نسله فمن البديهى أن يكون مكلفاً بوقايته والا كان الرجل كائناً غير عضوى .

فاذا فهمنا ذلك حق الفهم وجب علينا أن نسير الحياة الاجتماعية وفق قوانين الطبيعة وأن نسعى لايجاد العوامل والمؤثرات اللازمة لتطبيق ذلك ، علينا أن نفهم تماماً موقع المرأة والرجل فى الهيئة ونصيب كل منهما من الحقوق سياسية كانت أم مدنية ، اجتماعية أم شخصية ، فهما متساويان فى مسئولية هذا الجرم شخصياً من كل الوجوه الا أنه لما كان لسقوط المرأة أثر أشد خطراً على الاجتماع منه على الافراد فان العلماء الذين بحثوا فى هذا الأمر تركوا

المواهب الفكرية وأطباء الاجتماع فوصفوا واستقروا ، وبحثوا ونقبوا ، وشرحوا وعللوا ، ولكن جهودهم وقفت عند حد ما لا تتقدم ولا تتأخر عند نظرية واحدة ، وجدوا أنها أقوم الطرق لحل هذه المعضلة هى نظرية « الصفح » أجل لم يجدوا لذلك سوى « الصفح » لأنهم الأقوياء والمرأة ضعيفة .

ولأنهم لا يريدون أن يحملوا الرجل مسؤلية ما فى هذا الأمر الخطير يخطئ الكثيرون اذ يلقون مسئولية هذا الجرم على المرأة وحدها دون الرجل فهى وحدها التى تنال سهام لومهم وتقريعهم وعلى رأسها تصب جامات الغضب بدعوى أن القوانين وعادات الاجتماع لم تكن وحدها الدافع لوقوع المرأة فى مثل هذه الورطة وانما الطبيعة هى التى جعلت جرمها خطيراً الى هذا الحد لانها مأمورة بالمحافظة على النسل ولانها مكلفة بأن تكون صادقة على الدوام لزوجها الذى يستسلم اليها بكليته ويلقى بين يديها حياته وحياة أعقابه وذراريه .

فات هؤلاء أن الطبيعة كونت كل الأسباب والوسائط لسد حاجات الكائنات وتسويه لوازمها تماماً بلا خطأ ولا نقصان وانما على شرط أن تكون فى دائرة الحقيقة . فهل يجوز أن نقول للمرأة :

« الطبيعة هى التى خلقتك هكذا ، أنت مأمورة بالمحافظة على النسل ، ووقاية النوع الانسانى ، ومكلفة بالصداقه لزوجك فى كل الظروف ، وعلى رأسك فقط تقع مسئولية السقوط » . يجوز لنا أن نقول ذلك مع ما نعلمه من الفوارق بين الرجل والمرأة ومع ما نعلمه من هضم حقوقها ومع ما نعلمه من توفر أسباب تحكم الرجل لها .

على أصحاب هذا الرأى أن يعلموا قبل كل شيء أن المرأة أيضاً مخلوقة من العظم واللحم وأن لها أيضاً ميل وانجذاب نحو الأذواق ومشتهيات النفس

مقدمة الطبعة الاولى

بقلم حضرة الكاتب القدير عبد العزيز افندى الخانجى

كل شىء فى العالم خاضع للطبيعة تتحكم فيه نواميسها ، فلكل كائن حى فى الحياة قانون طبعى يدير حركته ويقف سداً فى وجه من يريد تحويله عن السير فى منحدره ، ولما كان الدماغ الانسانى كائناً فمن البديهى أن يكون له وعليه ما لسائر الكائنات ، أى أن يكون له قوانين طبعية خاصة تعينه على حياة كاملة طيبة فى دائرة هى دائرة الحقيقة كما تكون عوناً له على منازعة ما يخالفها .

خلاصه هذه القوانين وزبدتها وعنصرها الفعال انما هى « الارادة » .

فكل ما يتعلق بالانسان من الماديات والمعنويات ، من المعقولات والمحسوسات ، من المخترعات والمكتشفات ، تنمو وتتكامل فى هذا البناء الرصين « بناء الارادة »

والانسان طالما كان بيده مثل هذا السلاح الماضى فالحكم له فى كل زمان ومكان بشرط توفر كل المؤثرات والعوامل اللازمة لمحو وازالة ما لا يتفق مع قوانين الطبيعة لأن الخطأ الصغير قد يقف حجر عثرة فى سبيل تحقيق الآمال والنقص البسيط قد يسبب الفشل والخيبة .

بعد هذه المقدمة الصغيرة أنتقل بك أيها القارىء الكريم الى مرض اجتماعى خطير ابتلى به عصرنا الحالى ، عصر المدنية والنور ، مرض يئن من أعراضه القاسية ، وأوجاعه الأليمة كل عضو حساس فى جسم هذا العالم المتمدين وأعنى به « سقوط المرأة »

سرى هذا الداء فى بلاد النور سريان النار فى الهشيم وأنشب مخالبه فى عنق المدنية بشكل رهيب أقلق العلماء والفلاسفة واسترعى اهتمام أرباب

خالص شكرى لتفضله بتشجيعى ولقد كان لكلمته الطيبة التى نشرها فى صحيفته عند ما ظهر الكتاب أكبر أثر فى ترويجه حتى أن طبعته نفذت فى مدة لا تتجاوز الثلاثة أشهر . ولا يفوتنى . فى هذه العجالة أن أشكر حضرات أصحاب الصحف والمجلات الذين تفضلوا بالتنويه بظهور الكتاب ، واعترافا بفضلهم أذكرها بعضاً من كلماتهم كما أقدم شكرى لكل من عضدنى وساعدنى سواء بالكتابة عن الكتاب أو بتوزيعه بين القارئات الكريمات والقراء الكرام

وأخص بالذكر حضرة الاخ الكاتب النابه عبدالعزيز افندى أمين الخانجى الذى تفضل على بتصدير الكتاب بمقدمة فياضة فى نظرية السقوط .

والله أسأل أن يوفقنا جميعاً الى أمنيتنا الوحيدة ويكلل مجهوداتنا بالنجاح

محمد رأفت جمالى

السكاكينى ٣٠ ذى القعدة سنة ١٣٤٠ ، ٢٦ يوليه سنة ١٩٢٢

مقدمة الطبعة الثانية

المحمود الله سبحانه وتعالى ، والمصلى عليه النبى العربى وآله ، والمدعو له الوطن ورجاله وبعد :

انى وان صدرت هذا الكتاب بمقدمة كعادة المؤلفين فى تصدير كتبهم بمقدمات يفصحون فيها عن أغراضهم ويلمون فيها ببعض موضوعات الكتاب الا أنى أطلب من القارئة الكريمة ، والقارىء الكريم ألا يقرأ هذه المقدمة الا بعد أن ينتهى من تصفح الكتاب ، لأنها أحق أن تسمى خاتمة يختتم بها الكتاب من أن تنعت مقدمة يتقدم بها الى القارئات الكريمات والقراء الكرام .

كنت أنتظر أن ينتقد كتابى عديد من الصحف لأن الموضوع الذى طرقته من أخطر موضوعاتنا الاجتماعية ومن الموضوعات التى تتباين فيها الآراء والأفكار .

ولما كانت صحافتنا العربية فى العهد الحاضر أصبحت لا تهتم بأمر الأدب والأدباء ولا تعتنى بانتقاد ثمرات المطابع نقداً علمياً صحيحاً يستفيد منه مصنف الكتاب وقرائه ، لأن السياسة — قاتلها الله — أشغلت أعمدة الصحف كلها وألهتهم عن كل شيء غيرها حتى أنك أصبحت لا ترى كلمة عن كتاب فى صحيفة يومية عربية اللهم الا اعلان عن كتاب ظهر فى عالم الأدب يتكلف صاحبه دفع قيمة نشره أو تنشره له الادارة مجاناً وهذا نادر قليل .

ولقد تقدمت صحيفة الاجبشان ميل الغراء فترجمت أكثر فصوله للانجليزية صيف العام الماضي فدلت بعملها هذا على عناية جميلة واهتمام تشكر عليه فالى رئيس تحرير القسم العربى صاحب العزة سقراط اسبيرو بك أرفع

صحيفة الاهداء

خالى العزيز

الى نفسك العالية ، الى حظيرة عطفك الأبوى ، الى مقام حنانك الوالدى أرفع هذه الباكورة دليلا على اخلاصي ؟

« محمد رأفت جمالى »

مذكرات بغى

« الرجل والمرأة سواسية فى جرم
السقوط أمام محكمة الحقيقة والوجدان »

« الخانجى »

بقـلم

محمد رأفت جمالى

« الطبعة الثانية »

(مضافاً عليها بعض الزيادات)

التزام — « محمد عطيه »

تطلب من (المكتبة التجارية) بأول شارع محمد على بمصر
لصاحبها « مصطفى محمد »

مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر

مذکرات ملی

طهران